

.. ثم تعود الموجة

الطبعة الاولى ١٩٦٩
الطبعة الثانية ١/٤/١٩٧٩

دار العودة ـ بيروت
كونيش المزرعـة ـ بناية
الريفيرا سنتر ـ تلفون
٣١٠٨٤٠ ـ ٣١٨١٦٥

الطبعة الأولى
اذار (مارس) ١٩٦٩

ديزي الأمير

.. ثمّ تعودُ الموْجَة

دار العودة – بيروت – لبنان

الإهداء

إلى الصديقة البعيدة

سميرة عزام

كَبْشُ الفِدَاء

– أيهما أصعب : انتظار المصيبة أم حدوثها ؟

ولكننا لم نفكر في حدوث مصيبة ، وعلى هذا الأساس لم نكن ننتظرها .

وعادت الى الأمس ، الأمس القريب ، حين لم تفكر ولا لحظة واحدة في امكانية الفشل . « النصر كان ملكنا نشد عليه بأيدينا ونحن نسمع رعد الأناشيد الوطنية والنشرات المتوالية تذكر عدد الطائرات التي أسقطنا وعدد الأسرى الذي كبلنا » .

وعادت الى سمعها أسماء آلات القتال الحربية . كانت أسماء جديدة كثيرة لم تسمع بها من قبل ، ولكن جرسها كان يؤكد معنى القوة والبطش والتحطيم .

وعاد الصوت ينادي :

« اضرب لأجل الربيع
اضرب لأجل الجميع
اضرب لأجل الحياة
ولأجل صنّاع الحياة ».

لقد ضربنا بآلات من كل الاحجام والأنواع، وضربنا بجيشنا الكبير الموحد ، وضربنا بمعنوياتنا القوية ، وضربنا بالأيـــدي والأسنان .

فأين هي الحياة ؟ وأين هم صنّاعهـــا ؟ ومظاهر الربيع ؟ وضربنا ، كم طال ؟ وكم صمـد ؟ ومتى سنعاوده لأجـل عودة الربيع وعودة الحياة ؟

والتقت عيناهـــا بعينيه ، وقرأ كل منهما في نظرات الآخر الحديث الذي يعملان بكل قوتهما للبوح به والذي يسعيان بكل قوتهما لاسكاته .

سمعته : عمال مرفأ في ايطاليا يرفضون شحن باخرة تتوجه الى اسرائيل . الصومال تريد ارسال متطوعين . هذه العواطف المتفرقة أسكرتنا فظننا ان الرأي العام العالمي معنا . لم تجهر دولة واحدة بوقوفها مع اسرائيل فصدقناهم ... ومع هذا كله فكيف حدث ما حدث ؟

معنوياتنا ؟ لم يكن أقوى منها . استعدادنا الحربي ؟ نعدّ له منذ خمس عشرة سنة . حكوماتنا تتجاوب مع الشعب العربي . الاخلاص، الحماسة ، الشعور بالمسؤولية ... كل شيء كان فينا ، فماذا جرى لنا ؟

كانت عيناه تلمعان بحماسة غريبة وتتطلعان الى لا شيء ، فلم تدر الى من يوجه حديثه . فهو لم يحدثها احاديثهما اليومية الطويلة منذ ابتداء الحرب . أصبح يكتفي بالسؤال عن صحتها ويسألها ان كانت تحتاج شيئاً، وتكتفي هي بشكره، ثم ينقطع الحديث .

لم تجبه . وفتشت عن رعشة الحنان في نظراته، وطال تطلعها قبل أن تقول : « لم أعهد عينيك قاسيتين هكذا . لا أدري لم تخنق الحنان فيها ولا تترك لفيضه حق الانسكاب » .

فهز رأسه وأدار وجهه : « يجب أن ننسى الحنان . يجب أن نتعود القسوة والبطش والعنف عملياً ، لم يعد للرحمة مكان عندنا ولا للعواطف » .

– أتدري انك تحدثني أنا ؟

– نعم ، أدري هذا جيداً ، ولأجله لم أحدثك طويلاً في الأيام الماضية . الحديث اليك يريحني وأنا لا أريد الارتياح .

حدقت الى نظرته فلم تستطع الالتقاء بها ، ودارت ببصرها الى ما حولها . كانت الأشياء هي نفسها ولم تكن نفسها . كلها تتحدث بصمت عميق عميق . على الزجاج بعض الأوراق الزرقاء باقية من ليالي التعتيم مدت يدها تمزقها . سمعت صوته يعتب : « لمَ تزيلين الأوراق الزرقاء ؟ أحسبت ان القتال انتهى وان هذه هي نهاية القضية » ؟

أجابت : لم أعد أدري ما يصح قوله وما يصح عمله ...

فسأل بضحكة لم تدر مداها : هل ستزيلين الصبغ الأزرق عن مصابيح السيارة ؟

فلم تجب مع ألف رغبة في نفسها الى الحديث . عادت اذناها تمتلئان برعد الأناشيد الوطنية يصلها من ألف مذياع، وبالبلاغات الحربية المتوالية وبساعات الصمت الطويلة ، فترة منع التجول وخنق الأضواء ، وبثواني انتظار فترة الأخبار التالية ، ثم

أحست فجأة بالغثيان يغشى أذنيها وعينيها ، ولم تعد تدري الا الا انها تريد ان تصفع أحداً .

ويبدو أنه كان يحدثها لأن يده كانت تهزها ، فلم تتحرك ولم تجب ولم تصغ ، ولكنها لا تدري كيف طاوعته وسارت معه خارجاً. أجلسها بجواره وجلس هو خلف مقود السيارة وبدون ارادة منها مدت كفها تدير المذياع فلمست كفه يدها . تطلعت اليه . كانت شفتاه تتحركان لا تدري منذ متى ولكنها سمعته يقول : « تحدثنا من اذاعاتنا عن القوة والبطش وعن الانتقام ، وخيل لمن يسمعنا أننا أكثر أهل الأرض وحشية ، وكانت اذاعة إسرائيل طوال الوقت تتحدث عن معاملتها للعرب بالرفق وعن التزامها لحقوق الفرد أية كانت قوميته . أما الحقيقة المخجلة فهي إننا لم نكن وحوشاً . ما قام به اليهود في الأراضي العربية من بربرية لم يمر عليها التاريخ ولم تعرفها البشرية ولا في شريعة الغاب .

« زعقنا وصرخنا وأعلنا اننا سنبطش ونحرق ونهدم ونغرق ، فأهدرنا قوانا ، وظننا انا بتصريفنا لطاقات الحنق بالكلام قد أدينا واجبنا ، وهذا عكس ما فعله العدو ، فكسب الجولة والرأي العالمي العام وخسرنا » .

لم تسمع في صوته قوة وغضباً كالذي سمعته حينذاك ، وتمثلت لها عيون العرب وهم يطردون من أراضيهم لا يسمح لهم بحمل غير ما عليهم من ثياب ، وعيون الشباب المثقف وهم مصطفون أمام الحائط يحصدهم رشاش العدو ، وعيون المرضى والجرحى

في المستشفيات وهي ترى القنابل المحرقة تسقط عليهم ، وعلما الصليب والهلال الأحمران يرفرفان مطمئنين ، وعيون المطرودين يحاولون عبور النهر والجسر ينوء بحمل هذا العدد الهائل من الناس ، وعيون سكان القدس وهم يجبرون على القتال بسكاكين المطبخ دفاعاً عن بيوتهم وشرفهم . لو تجمع حقد هذه العيون كلها وانصب آلات قاتلة ، صواريخ وقنابل وطائرات، اما كنا أبدنا العدو وأحرقناه ؟

كانت السيارة قد توقفت منذ مدة وهو جالس بجوارها لا تدري أينتظرها لتنزل أم انها هي التي تنتظره . الذي تدريه انها نزلت ولحق هو بها وتوجه كلاهما إلى مقهى شبه فارغ ، ولكنها فكرت بالتراجع حين رأت مائدة يحتلها عدد من الشباب أمامهم قناني وكؤوس الخمر مختلطة بضحكاتهم العالية .

سمعته يقول : « هذه حقيقة يجب مواجهتها فلا تهربي » . جلسا متقابلين وكل منهما ينظر إلى كل شيء عدا من أمامه . كانت الصخور تتدحرج على طرفي نهر جاف والاشجار مهملة ، تحتها كوم من الحشائش تتنفس بينها بعض الزهور إذا استطاعت اختراق الحصار . اكداس من الاوراق اليابسة تغطي الأرض إلا ما طيرته الريح فتكوم فوق الكوم الأخرى . لم يكن على الأرض بادرة من مظاهر الربيع، ومع هذا فقد ارتاحت للطبيعة الأصيلة غير المزيفة . زاد الجو إصالة حين انتبهت إلى صوت نقيق الضفادع. منذ مدة وهي تشتاق سماع صوت صادق ينسيها الضجيج المفتعل . وطربت لما تسمع ... ولكن الصوت الذي

تسمعه لم يكن نقيقاً . لقد اختلط معه صوت جديـد . امتلأت اذناها بثغاء الماعز . كان حولها قطيع وصل قسم منه إلى المقهى فانـدس في أكوام الحشائش ، وظل الآخر يتسلق الصخور من النهر الجـاف . وكان الراعي يلاحق ماعزه يحـاول بكل ما في وسع الأصوات المتفاهم عليها بينهما لثنيها عن الوصول إلى فوق .

ثم رأت، عدداً من الرجال يندسون بين الماعز . أما المائـده العامرة فقد قل عدد رجالها .

سمعت صوت الراعي يقول بتخاذل : « نعم أنا فلسطيني ». وطرقت كلمة فلسطيني سمعها ، فأدارت وجههـا لترى رجلاً يواجه الراعي الفلسطيني بكل صلافة ويسأله أن يريه هويـة اقامته ، والآخر يتهاوى ويرفـع ذراعيه يحمي وجهه من صفعة ينتظرها وهو ينفي وجود هوية لديه .

أحست غضب الكرة الأرضية يتجمع في رأسها ونهضت مسرعة وفمها مشحون بألف شتيمة . كان الرجـل يصرخ : « بأي حق تسطو أنت وماعزك على املاك الغير ؟ لقد خرّبت الحديقة وهشّمت الزهور وأنت لا تحمل حق هويـة اقامة على هذه الأراضي ! لو أردت لسلمتك إلى الشرطة ... خذ ماعزك وامض من هنا » .

اختنقت الشتائم في فمها وشلت قدماها وهي ترى الراعي ينادي ماعزه ويهرع معها هابطاً يخترق الصخـور والأشواك ، والهلع مرتسم على وجهه المسحوق ، وكان الرجل يبتسم ، وهو يتأملهم يهربون .

صرخت فيه : « أية حديقة هذه التي تخاف عليها وتزعم ان الماعز هشم زهورها، وأية حرمة تدعيها انتهكت ، أما خجلت من تهديد الفلسطيني بتسليمه للشرطة. ونحن كلنا سبب بلائه » ؟

ووصل رفيقها فطلب منها العـــودة إلى مكانها قائـــلاً : « لا تساعديهم على اخراج التمثيلية إخراجاً ناجحاً »..

ذهلت مما تسمع ، كادت تصرخ : « حتى أنت » ؟

حين قال : « هل رأيت كل المشاهد ؟ »

أجابت بغضب : « نعم رأيتها ، رأيتها كلها ، وكان يجب أن ابدأ الكلام قبل الآن ، ولا أدري كيف جمـدت الكلمات وبصعوبة أذبتها » .

قاطعها : « هل رأيت الجدي الصغير وكيف سرق ؟ »

— جدي صغير ؟ سرق ؟ كيف ؟ ومن فعل هذا ؟

ارتسمت بسمة حنـــان على عينيه وهو يقول : « اهدأي واصغي إلي . حين كنت تستمعين إلى مـــا يدور بين الرجل والراعي وتستعدين متحمسة للحديث ، كان رجل آخر يسرق جدياً صغيراً ويهرب به الى خلف المقهى » .

— ولِمَ سكت أنت ؟ لِمَ لمْ تقل شيئاً ؟

— انشغالك بالتمثيلية عن الحقيقة المسروقة أنساك وجودي ورؤيتي وما عملت .

— لِمَ لمْ يصرخ الجدي ؟ لِمَ لمْ يستنجد ؟

— الاستنجاد وطلب الحق يحتاجان فماً طليقاً. كان السارق يطبق بيده على فم الجدي .

وقبل ان تستفهم عن بقية التفاصيل وقف رفيقهـــا وصاح بأعلى صوته ينـــادي صاحب القطيع الذي لم يكن قد ابتعد كثيراً .

ارتفعت أصوات من المائدة العامرة وركض واحـد : « أنا صاحبَ المكان ، ماذا تأمر ؟ هل أعجبك الطعام ؟ وكيف تريد القهوة ؟ »

– ارجع الجدي الصغير الى صاحبه .

فتظاهر صاحب المقهى بالغباء وأقسم انـه رجل شريف لا يسمح بحدوث أمر كهذا في ملكه .

أجاب رفيقهـــا : لا أعرف من السارق ، ولكنك أنت المسؤول عما حدث في مقهاك . وهـــا هو صاحب القطيع على وشك الوصول .

فذهب صاحب المقهى وهو يردد عبـــارات القسم الشق مؤكداً جهله بالموضوع .

وصل رجل بدوي دلها التساؤل في عينيه انه صاحب الماعز. طلب منه رفيقها أن يذهب الى القسم الخلفي من المقهى لعله يجد الضائع .

وقامت هي علها تساعد البدوي في تفتيشه ، فناداها رفيقها أن تجلس وتترك الأمور تعـــالج بروية ، مذكراً إياهـا بنتائج الاندفاع الأهوج .

عاد البدوي ومر بهم محيياً . كان الحمل الصغير يتطلع بعينيه الوادعتين وأذناه مسترخيتان برضى .

ولحقت بالبدوي تتأمل الجدي في حضن صاحبه . وحين عادت الى مكانها رأت رفيقها واقفاً ينتظرها . تأمل ما حوله ونظر الى الأفق البعيد قائلاً :

– هكذا خسرنا الحرب . تمثيلية اليوم الصغيرة نموذج للتمثيلية الكبيرة التي عشناها . هل تريدين ان نوزع أدوارها مقارنة بأشخاص تمثيلية اليوم ؟

فهزت رأسها نفياً .

قال : أما الفصل التالي الذي أقرأ الرضا عنه في عينيك فدوره آتٍ ، ونحن في انتظاره ، على أن نكون صامتين بحكمة وحذر .

حزيران ١٩٦٧

عَزِيزة

الدنيا عيد ، كل ما حولها يقول هذا ويعلن عنه ، ويهتف به : الدنيا عيد بألوانها الزاهية البراقة . وتزاحم ضحكات الناس ونشاط السيارات وصبرها، وتأني البائعات والبائعين في الاصغاء الى الطلبات ، فلا عصبية ولا حدة" تسكت المشتري اذا طال تأخره في الاختيار .

— احملي يا سيدتي .. يا آنستي هذه السلة واجمعي فيها ما تريدين شراءه للعيد، للشجرة، لاقربائك، لاعزائك و.. لاحبائك.

تقول البائعة العبارة الأخيرة وهي تغمز بعينها . وتحمل (عزيزة) السلة وتحتار في ما تختار . الكرات البراقة كلها جميلة، وكل ألوان الأشجار جميل ، والهدايا كلها جميلة ، وكذلك أوراق اللف والأشرطة .. كل الأشياء جميلة ..جميلة !

أتراها كانت هكذا دائماً ؟ وفي كل سنة ؟ هذا ليس أول موسم أعياد تمر عليه ولكن الدنيا هذه السنة عيد .. عيد .

لتبدأ بقسم الأوراق المزخرفة . ماذا تشتري ليلف بهذه الأوراق ؟ قربها فتاة تتحدث بالهاتف : « لم غبت عني طوال هذه المدة » ؟

ابتعدت (عزيزة) تأدباً ، الى أحد أقسام الهدايا . مئات من ربطات العنق كلها أنيق ، والبائع غاطس في كومها وكوم المشترين . سألته ان يناولها ربطة جميلة وأنيقة ومبتكرة ، فقابل طلبها بضحكة عالية : « كل الربطات جميلة وأنيقة ومبتكرة اذا لاءمت المهداة اليه » . فاحمر وجهها ، كيف ظنته لا يدري ان ربطة العنق ليست لها ؟

ابتعدت تخفي احتقان وجهها . كانت فتاة الهاتف تقول بتوسل : « أرجو أن يكون وعدك صادقاً هذه المرة ، أنت تدري ما معنى أن تبتعد عني » . في الجانب الثاني من الهاتف أشرطة للف الهدايا منها اللامع والرفيع والعريض ومما هو مؤلف من خيط زهور « ايُّها يلائم الهدية التي ستشتريها » ؟

فتاة الهاتف تقول : « من كلمني اليوم إذن ؟ ظننتك اياه حين قيل لي ان رجلاً عميق الصوت أراد محادثتي ولكنه لم يذكر اسمه » ..

انتبهت (عزيزة) الى انها تصغي الى الحديث فابتعدت . ماذا لو تشتري وشاحاً صوفياً ناعماً يدفيء ولا يخدش الوجه ؟ وشاح واحد لا يكفي ، فمن غير المعقول ان يلائم كل ألوان البذلات . لتختره ملائماً لرباط العنق ..

وعادت الى مكان الأربطة ..

فتاة الهاتف تقول : « ما الذي غيرك علينا ؟ أتتذكر العيد الماضي؟.. لا ، لم أقصد العتاب،أنا أدري انك لا تحبه ، ولكن مظاهر الفرح التي تحيط بي تذكرني ... »

قال بائع الأربطة : « الشائع هذه السنة ربطة عنق مع منديل جيب بنفس اللون » .

واحتارت (عزيزة) أمام أكداس العلب . أمسكت بالأربطة . كانت ناعمة طرية ولكن المنديل غير مبطن مثلها بالحرير ، سألت البائع عن هذا فضحك قائلاً : « ليس المفروض أن تمسكي بالمنديل بل بالرباط ، ولذلك بطنوه وحده بالحرير ليتلاءم واليدين الناعمتين » .

وعجبت لهذا البائع المتمالك أعصابه في أكثر الأوقات تعباً وأرهاقاً . وحين رآها تغضّ الطرف قال : « الدنيا عيد ولا حساب على الكلام » .

وجدت نفسها تبادله الضحك وتجيب : « صدقت ، الدنيا عيد ولا عتب على الكلام » .

وتذكرت عتاب فتاة الهاتف أين وصلت فيه ؟ كانت لا تزال ممسكة بالسماعة وقد قربتها من وجهها ، من كل وجهها ، وهي تعض على شفتيها تكاد تدميها : « لا أستطيع تدشين فستاني الجديد لغيرك . وأنت تريد أن تخلو الى نفسك ليلة العيد ؟ ما معنى هذه الخلوة ؟ كنت في الماضي تخلو الى نفسك حين أكون بعيدة . أنا هنا الآن » .

رأت عزيزة مشترياً يمسك بولاعة ذهبية مبتكرة الشكل ، قلبت الولاعة : اذا كانت هديتها ولاعة ، فهل معنى هذا انها تشجع على التدخين ؟ سلمت الرئتان .. لا .. لا تريدهما أن تتعبا ..

فتاة الهاتف تقول : « أعـددت قنينة من العطر الذي تحبه والذي تقول انه يذكرك بي أينما شممته . أم تراني يجب أن أقول كنت تقول » ؟

وتمد عزيزة نظرها الى قسم العطور ، هل تشتري عطراً رجاليـــاً ؟ أتهديه عطراً ؟ انه رجل ! رجل ! يكفيه عطر نفسه !

فتاة الهاتف تقول : « أنا أحيك فيها منذ شهر ، وهي بلون عينيك ، كيف أهديها الى غيرك ؟ انها لك. ولن أسمح لغيرك أن ينعم بدفئها » .

قسم الأصواف قريب: ماذا لو اختارت بلوزة صوفية؟ وفي امساكها بها تذكرت فتاة الهاتف : هي لم تشتر قطعـة صوفية جاهزة ، بل حاكتها بيديها غرزة بعد غرزة ، فرحة بها وهي تنمو وتكبر .. لا لن تشتري شيئاً جاهزاً كان يمكن أن تسعد بحياكته .

فتاة الهاتف تكمل : « سأحتفظ بهـــا الى أن تسمح لي باعطائك اياها . أتذكر الوشاح الذي حكته لك ؟ وأصررت أن تلبسه أمام الناس دقيقة أخذته مني ولففته حول عنقـــك وقلت انك تشم رائحتي فيه » ؟

وقفت عزيزة محتارة مـــاذا ، تختار وأجالت بصرها بين الأكوام والأكداس من الأربطـــة والمناديل والولاعات .. و .. سماعة الهاتف في مكانها والفتاة ليست هناك . فتشت عنها فوجدتها بجوار كومة من المعروضات تمسح دموعها وهي تتظاهر

بتقليب البضاعة .

رفعت عزيزة يديها الى أذنيها تغلقهما بشدة ، واختفى من أمامها البريق والتألق ، وتطلعت الى الناس .. كانت وجوههم مغطـــاة بأقنعة .. أقنعة ضاحكة ساخرة تمد ألسنتها وهي تبكي ..

مشت عزيزة بكل ثبات الى آلة الهاتف وأمسكت السماعة بكل قوة وأدارت أرقاماً تحفظهـــا أفضل من حفظها لحروف اسمها . وجاءها الصوت يقول : (آلو) باللهجة التي تميزها من بين كل نبرات سكان الكرة الأرضية . قالت : « لن أراك فترة الأعياد كما تنتظر .. أنا أكره الهوان وأرفضه ..

.. لعلك لم تميز صوتي .

أنا عزيزة » ..

كانون الأول ١٩٦٥

عَطـار

فتحت عينيها صباحاً على صوت بكاء طفل الجيران اليومي، فأحست بحاجة إلى البكاء (لا يبكي الواحد منا دون سبب ، وهذا الصغير متألم فكيف لا تبكي أمه مشاركة له) ؟

سمعت صوتها يناديه أن يسكت وان يصبر « والمفروض أن يميز الطفل صوت أمه فيطمئن » ولكن الطفل يلح في البكاء . (أهو الجوع وحده يبكيه ! لم لا تعود أمه اليه تحتضنه وتقول له أنها تحبه تحبه تحبه) ؟

الاسترخاء في الفراش يريح الجسم ؟ ليتها تستطيع البقاء فترة أطول فيه . الاسترخاء يريح الجسم والنفس ؟ النفس ما الذي يريحها ؟ .

قلبت فساتينها المعلقة ، الزاهي منها لا تنجذب اليه، والمعتم يزيد عتمة نفسها،على كل حال فان أي ثوب يلائم أي يوم عندها، وتأسفت لما بدا شعرها مرتباً . .

كان السائق ينتظرها وهو قابع في سيارته كعادته. النوافذ مغلقة والمطر يطرقها بزخاته القوية . سيبدأ حديثه ما أن تغلق الباب خلفها ، فطالما حدثها في طريقها اليومي إلى العمل ، عن

عائلته وعن أيام شبابه وكم لها فيها وكم أنفق ، ويتأسف لأنه لم يدخر لأولاده مما ربح في فترة الشبــاب ، أو يقول انه متأسف لأنه تزوج وأصبح مسئولاً عن أسرة وصار لا يملك ما كان يملك من مجالات اللهو والمتعة . وكانت تجيبه دائماً بـأن الأيام الحلوة هي حصيلة الفرد الوحيدة من الحياة . أما اليوم فلم تحس أنهـا تريد قول هذا ، وبدا لها السائق كهلاً وهو يلف رقبتــه بوشاح صوفي يغطي إلى ما فوق أذنيه . ولزم السائق الصمت أو هكذا حسبته سيفعل ، إلى أن بدأ حديثاً جديداً. فقدمه تؤلمه وهولا يستطيع الراحة في البيت فعليه أن يعمل ...

كانت المياه تعلو وتغطي الرصيف ، وبعض المـارة يخوضون بركاً ليشقوا طريقهم .لم تر أحداً يتطلع إلى السماء، فالغيم كثيف ولا بادرة تبشر بقرب انتهائه . قال السائق انـه سيجرب كل المراهم الموجــودة في البيت ، وإذا اضطر لاستشارة طبيــب فسيستعين بطبيب صديق لا يدفـع له أجرة الاستشارة وخـتم عبارته ، كما يفعـل بعد كل مقطــع ، بأن الحياة قـــدر وقسمة ونصيب . تذكرت طفل الجيران الباكي. هل يخبىء له المستقبل أن يصبح سائق سيارة نادماً على ماضيه ساخطـاً على حاضره ؟ « ليت الحياة قدر ، اذن لكان هناك تخطيط سابق يريحنا فيما لا نستطيع تغييره . أية صدف سيعبرها طفل الجيران وأية صدف سيقف عندها » ؟

على طاولتها في المكتب ، كانت كومة الصحف تنتظرها ، قلبتها، قرأت الصفحة السياسية ولخصت أخبارها بأن لا جديد

في السياسة الدولة ومشاكلها العامة لا تزال مستعصية ، وإذا حل بعضها فاكثرها ، سيبقى دائماً دون حل ، ما دام هنا من يبدأ نهاره بالبكاء ...

انتقلت إلى صفحة المجتمعات المملوءة بالجميلات الانيقات زوجات أو بنات أصحاب السعادة الوجهاء . وتساءلت في تلخيصها هل أصحاب السعادة سعداء؟ وهل استطاعوا أن يورثوا أو يسبغوا على زوجاتهم وبناتهم غير المظهر الخارجي للابتسامة والجمال ؟

ثم تصورت الواحدة منهن زوجة أو ابنة سائق سيارة ، وكانت فائقة الجمال والذكاء ، وشكا زوجها أو أبوها من ألم قدمه ولم يستطيع أن يتوقف يوماً واحداً عن العمل ، ولم يستطيع كذلك أن يستشير طبيباً يطلب ثمن الاستشارة ، فما ذنبها ؟ ما ذنب هذه الزوجة أو هذه الابنة إذا لم تنشر الصحف صورها ؟

انتقلت إلى صفحة الجرائم اليومية ، جرائم حدثت وعقوبات صدرت ، وفتشت عن الخط المشترك بين ما حدث من جرائم وما صدر من احكام فلم تجده . اقترحت اضافة قانون اسمه القانون الانساني ، يحكم بالاعدام شنقاً حتى الموت على عديمي الوفاء ويعلق وساماً لمن يقتل شخصاً يستحق الموت ..

لم تمزق الصفحة الأدبية على كثرة ما فيها من أكاذيب « أقامت احدى اللجان الأدبية حفلة تكريمية كبيرة بمناسبة صدور رواية ... قالت في تلخيصها : المؤلف دفع نفقات الحفلة

واللجنة الأدبية دعت اليها . الجائزة الـتي منحت لديوان الشعر استحقها الشاعر لأنه شخصياً يمثل خطاً سياسياً معينـاً تلتزمه الجائزة » . عشرات من الاخبار الادبية الصادقة غير المنشورة لخصتها في تقريرها ..

عادت تراجع التقرير ثم رمته في سلة المهملات. ليس مطلوباً منها تقديم تلخيص كهذا ، ما عليها إلا أن تضـع نسخة من كل صحيفة على الرف المخصص لها . وزعت الصحف على رفوفها ثم عادت تسترخي على كرسيهـا ، وسحبت ملف الأوراق تقرأ التقارير وتجيب عليها . وارتفـع رنـــين الهاتف ومن السماعة بجوارها من مكان قريب جداً وصلها صوته البعيد ..

شيء ما فتح عينيها صباح اليـوم التـالي . لمسة من احلامها أيقظتها وتبسمت لصوت بكاء طفل الجيران « انه جائع يستقبل صباحه بشهية للحياة وهو يريد إثبات شخصيتـه فلا يستجيب لنصح أمه بالصبر ولكنه سيشبـع حناناً حين تجيئه بالطعـــام وسيدري كم تحبه فيطمئن » ..

سحبت فستاناً . ما عليهـا أن كان زاهي اللون أو معتمه . فكل الالوان جميلة ، ولكن شعرها أتعبها في تصفيفه. يجب أن يبدو في غاية الترتيب ، فقد يحدثها صوته اليوم . وتطلعت عبر النـافذة إلى المطر « البرد لا شك شديد ، ليتها تبقى في البيت تستمتع بالدفء ، بدفء المطبخ ، تعد أكلات لذيذة شهية .وتتنقل في انحاء الغرف. تضع في هذه الزاوية زهوراً وعلى هذه الأريكة وسادة تريح ظهر الجالس . الطـــاولة في غرفة الجلوس تقصر

أرجلها لترتاح الكف وهي تنفض السيكارة وتشعل ناراً كبيرة في المدفأة ، ناراً تتوهج بألوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء و .. اما الضوء فتجعله خافتاً بدرجة تريح العينين ولكن لا تدعهما تنامان . وإذا نعستا؟ ستتركهما تنامان، انهما متعبتان. توقف الموسيقى وتطفىء السيكارة وتتربع على السجادة قرب النار تنتظر .

من أسفل الدرج نادت على الخادمة أن تأتيها بالشمسية ، وبادرت السائق بالسؤال عن أولاده وعن مدى زهوه بهم ، فقال إنهم يساوون ملك الدنيا عنده ، ولكن ليته .. فقاطعته بأن الأيام الحلوة هي حصيلة الفرد الوحيدة من الحياة، وعجبت لما وافقها برؤوس شفاهه .

كان اليوم عاصفاً،والبحر هائجاً صاخباً؛ لم تر الموج أجمل مما رأته اليوم – قال السائق انه اضطر لاستشارة طبيب و ...

كانت الغرف الزجاجية تمتد على شاطىء البحر. ليتها هكذا وبقدرة قادر تجد نفسهاداخل احدى تلك الغرف والموج يضرب الزجاج ويرتطم به وينفرش عليه وهي .. هي لا يصلها رذاذ منه. كيف يصل البحر الهائج اليها وكل شيء يحصنها؟؟ وسمعت السائق يسأل : ألا ترين ان الورم أقل ، اليوم فأكدت له ذلك واردفت : وزال كل الألم .

حين رأته جالساًفي غرفتها بالمكتب ، أحست بقلبها يتحرك بقوة ويهبط مسرعاً ويتدحرج على الأرض ، وخافت ان تتعثر قدماها به فجلست على الكرسي،واختفى من رأسها ولسانها كل

ما كانت قد أعدت لرؤيته.

قال إنه يريد أن يشبع عينيه من رؤيتها بعد هـذا الفراق الطويل ، وكادت تمد يدها تمسك به لتتأكد ان ما تراه وتسمعه صحيح ، ثم قال ولكنه لا يسمح لنفسه بـأن يغرق عينيه في رؤيتها قبل أن يعتذر ويستغفر ولا يدري كيف، فعيناه منها في التراب .

انها صاحبة أكبر قلب وأكثر انسان مقـــدرة على المغفرة والعطاء، وقاطعته تريد اسكاته ، فهي لا تحب العتاب والمهم انها تراه الآن ...

سأل : أصحيح انك غفرت لي ؟ غفرت لي ما لا أستطيـع أنا نفسي مغفرته لنفسي ..

أجابت : متى سأراك ؟ ..

ضحك : وأين انا الآن ؟

– أعني متى وأين سأراك ؟ ..

– في الهند ، في القطب الشمالي ، في أقصى المعمورة هنـا . اليوم . الآن .. عليك أن تأمري وعلي أن أنفذ ..

« عيناي منك في التراب » وتطـلعت إلى كرسيه الفارغ ، ثم حملت الصحف لتوزعها على أماكنها .

قرأت في عنوان صحيفة تمسك بهـا « أنت صاحبة أكبر قلب » وضعتها على الرف وفي الثانية قرأت : وأكثر انسان مقدرة على العطاء ...

رمت الصحـف وسحبـت الملفـات تغرق في قراءتهـا

فقرأت (أصحيح انك غفرت لي) ؟ ...

ومن كل الزوايا سمعت (صاحبـة أكبر قلب وأكثر انسان مقدرة على المغفرة والعطاء)..

غطت اذنيها وفي كل الاوراق التي أمامها قرأت :

أصحيح أنك غفرت لي ؟

أصحيح أنك غفرت لي ؟

أصحيح ؟ أصحيح ؟

أغمضت عينيها وعبرتها صور الماضي ، صورة أثر صورة ، عبر صورة ..

(أنها صاحبة أكبر قلب وأكثر انسان مقدرة على المغفرة.. والعطاء .. العطاء .. العطاء .. العطاء) ...

أنبأها رنين الهاتف ان المدير يريد احد الملفات ،فأخذته اليه ، وقبل ان تبدأ العمل الذى طلب منها جلست تكتب بكبرياء..

« أنا لن أعود اليك لأنني ، ووا خجلي ، كما وصفتني تماماً ، صاحبة أكبر قلب وأكثر انسان مقدرة على العطاء ، ولأنني ، وعيناي منك في التراب ، قد غفرت لك كل شيء . غفرت ما لا تستطيع انت نفسك غفرانه لنفسك » ..

طلبت إلى الحاجب إيصال الرسالة إلى يد صاحبها عند انتهاء فترة الدوام ، وأنهت أعمالها ، ثم ذهبت لتمضي ما تبقى من اليوم عند صديقه ليس في بيتها آلة هاتف ..

شباط ١٩٦٤

الجبل العالي والسهل المنبسط

الى الشاعر سعيد عقل

عطلة نهاية الأسبوع قربت، ستبدأ من الغد بعد الظهر ، وهي تشعر بتعب شديد ، تحتاج راحة تامة وتحتاج في الوقت نفسه الى تسلية تامة ،الى تغيير النهج اليومي المستمر. واحتارت هل تبقى في البيت تقرأ وتأكل وتنام دون التقيّد بمنهاج قد يتعبها ؟ ام تلبي أحد البرامج المعروضة فتعود مجددة نشاطها . . . أو فاقدة اياه تماماً ؟

فكرت ألا تخطط، ولتفرض المصادفات نفسها كما تفعل حين تتمنى وتتنظر وتفكر وتحلم، ثم تأتي المصادفة ،السيدة الكبرى، فتذهب الخطط واحلامها وينتهي الانتظار وامانيه .

استعرضت البرامج. هناك اقتراح بتمضية عطلة نهايةالاسبوع في ذاكالفندق البعيدفي أعلى الجبل العاليحيث لا كهرباءولا مذياع ولا هاتف . انه انقطاع تام عن العالم اليومي المتعب، هي في حاجة الى هذا الانقطاع، وهي كذلك في حاجة ،وفيهذا المكان بالذات ، الى صحبة خاصة تملأ النفس بجمال المحل .

تخشى ان تذهب فتستيقظ الوحشة وتقسر على مواجهتها، فإلى أين تهرب ؟ ليت هناك من يجبرها على اختيار برنامج . المصيبة انها تدري تماما ما تريد ! ومن تريد ! وكيف تريد ! ومع كل هذا التيقن ... فليت هنا من يختار لها برنامجاً !

ودعيت إلى الغداء لدى صديقة عزيزة، وحين عرفت ان الوليمة واسعة شاملة اعتذرت بارتباطات سابقة ... بارتباطها للذهاب الى ذاك الفندق البعيد في أعلى الجبل العالي . واستقرت على هذا، تلفظ لسانها صدفة بمنهاج وانتهى الاختيار عندها .

ما كادت تحس ببعض الراحة حتى أخبرت بأن هذا المنهاج ألغي بسبب زيارة ضيوف مفاجئين،وعادت اليها الحيرة،فأكبت على العمل تستعين به . وبانتهاء فترة الدوام توقف العمل وابتدأت عطلة نهاية الاسبوع .

تمنت ألا يكون الحر شديداً فكان . وفكرت ان تبدأ بقراءة بعض من كتل الكتب المؤجلة فلم تفعل . وانتظرت ، ولأول مرة،ان يأتيها ضيوف حتى ولو لم يكونوا اصدقاء،فجاءوا ولم يكونوا اصدقاء . ما ضرها لوطلبت زيارة اعزاء ؟

جاءت جارتهم العجوز . ولم يكن فيالبيت احد يستقبلها . كان يجب ألا تفتح الباب كما تفعل حين تريد ان تخلو الى نفسها . ولم تدر ان كانت حقا تريد الاختلاء بنفسها .

شكت لها الجارة العجوز أولادها . انها تعيش لهم وتنتظر الايام لتفرح بهم ، فماذا بقي لها إلا الآمال ؟ قالت هذا وهي تشير الى شعرها الأشيب . وأحست هي بقشعريرة وكزت على

اسنانها تتأكد من ثبوتها وتلمست شعرها تنعم بسواده،ثم أنزلت اصابعها الى وجهها تتحسسه .لم تعد تسمع ما تقوله الجارة العجوز، وتذكرت فجأة ان الغد عطلة ، فلم تدر كيف ولمَ سألت الجارة عن برنامجها لليوم التالي . فتنفست هذه عميقاً قبل أن تعود إلى حديث الشكوى من أولادها الذين لا يرضون ان يأخذوها الى زيارة السيدة المقدسة .

الغد هو يوم عيدها والسيدة تزورها كل ليلة وتذكرها بنذورها ، لقد اعطتها كل ما طلبت ولم يعد لها مطلب غير سعادة الاولاد، فيجب ان تذهب اليها أولاً .

وجدت نفسها تصغي بكل انتباه للحديث الساذج الطيب ثم وجدت نفسها كذلك تعد الجارة بأخذها بسيارتها تزوران معاً السيدة العذراء .

وابتدأت الرحلة ورافق الجارة العجوز ابنها الشاب . قال انه يخشى على السيارة الجديدة مما قد تتعرض له .

كانت السفرة أطول مما تصورت ، وبدأت تعد المنعطفات فالوديان ثم التلال ، وبدا لها الدرب طويلاً قبل الوصول الى المكان البعيد وراء السهل المنبسط، وفرحت لذلك ، فهذا تمرين جيد على قيادة السيارات .

ولكن حديث الجارة عن عجائب السيدة المقدسة كاد ان يبعثر تركيز افكارها ، صاحب الفرن القريب أوصى المشتري الجديد ألا يشعل النار يوم عيد العذراء،فالفرن هي حارسته.ولم يصدق الصاحب الجديد الرواية ، وحاول ايقادالنار فلم تشتعل ،

وحاول ثانية ففشل ، وصب أخيراً تنكة كاملة من النفـــط ، واذا به ينقلب ماء يخمد الامكانية . ودقت الاجراس تعلن ابتداء الاحتفال بالعيد ، فركع الناكر واستغفر وتعهد بتكريس هذا اليوم للصلاة » توالت الروايات من الجارة العجوز . وكانت اسنانها الاصطناعية تصطك بتوقيع متتال فتتبعته ولم تفطن الى بقية الحكايات .

سمعت ابن الجارة يعجب بسياقتها نسبة الى قصر مدة التمرين. فتحت فمها : «في الحقيقة . .» ثم استدركت : «حكاياتك يا خالتي عجيبة وهنيئاً لك على إيمانك » . لا تدرى كم من قصص الايمان روى قبل ان يلوح لهم السهل المنبسط ، واحست بارتياح ، ولم تعد بحاجة الى انتباه وتيقظ . الطريق الفسيح ممتد يسمح لافكارها بالانسياب .

سمعت الجارة تهتف : « ها قد قربت الضيعة المباركة ، ابدأوا بطلب الاماني » . فضحكت عالياً : ما عساهم يقولون لو حدثتهم عن امنيتها الصغيرة التي طالما رجتها ؟ تريد ألا تخرج مفتاح البيت من حقيبتها ظهر كل يوم . ان تجد الباب مفتوحاً او يفتح لها احـــد افراد أهل البيت الباب وهم يترقبون وصولها من الشرفة . وظناها تضحك استهزاء بالمكان المقدس ، فنفت هذا ، وأحست انها تنفي التهمة بشدة ، وتؤكد ان هذا النوع من عدم الاحترام لحرمة المكان غير وارد عندها ثم .. تعجبت .. لم تخش أن يظنوا بها هذا ؟

ووصلوا الضيعة أخيراً . كان هناك حشد من الناس متجمعين

حول زقاق ضيق وعر لا تنفذ منه غير سيارة واحدة إذا استطاعت . ويرتفع الزقاق فجأة الى تل . كان هذا ما رأته خلال الرؤوس والاجساد . ثم اكتشفت ان الطريق الوعر الضيق المتعالي ذاك ، مكدسة عليه حجارة باحجام متباينة . توقفت هنا ، فهي متأكدة من عدم استطاعتها الصعود بسيارتها. وتجمع الناس يسألون ، اذا كانوا سيذهبون الى زيارة السيدة بالسيارة ام على الاقدام ، وظننت انه لوعورة الطريق يفضل السير ،فسألت عن بعد المسافة ، فأجاب البعض انها تستغرق ربع ساعة بالسيارة ، أما على الاقدام فتتوقف على مساعدة السيدة المقدسة .« ما علاقة الإيمان بالاقدام»؟ قالت هذا بصوت مرتفع، فتطلع الكل اليها مستغربين، وطلبت منها الجارة ان تستغفر وتستغفر ،فأجابت : ليسق السيارة غيري ممن هو أكثر مهارة مني.

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر والشمس حارقة قريبة ، والرمال الحمراء تعفر الرؤوس والوجوه وتملأ الخياشيم والرئتين. واهتزت السيارة وزأرت وتباطأت ، ولكنها كانت تمشي ، ثم صادفتهم سيارة واقفة في منتصف الطريق ، فنزل سائقهم دون استئذان مسرعاً الى السيارة الواقفة يستطلع اخبارها . فتح غطاء الماكنة وحرك من هنا سلكا . وضرب هنا بروزا ثم أخرج من جيبه ملفاً للبراغي أداره هنــا وهناك والسيارة محردنة لا تتحرك .

مرت بهم افواج السيارات مثيرة التراب الأحمر وباعثة كل أصوات العنف . نادت على السائق أن يعود، أن يترك الآخرين

وشأنهم ، فأجابهم وهو لا يزال يحاول إعادة الحياة إلى الماكنة: «تتعبين وأنت في السيارة ؟ أنظري إلى الناس يذهبون إلى زيارة السيدة حفاة » . وتطلعت إلى الأقدام . أقدام مجرحة معفرة لشيوخ وشبان وشابات وأطفال سائرين أو محمولين . أما الجارة وأبنها فكانا جامدين يتمتمان وكأنهما غائبان عن الوعي . أعادت النظر إلى السيارة الواقفة ، فرأت امرأة تنزل منها وتمسك بيد رجلها تسحبه وهو ، الرجل ، يستمهلها ليركع أولاً ويرفع رأسه إلى السماء هاتفاً« آمنت بك أيتها المقدسة ، سأفي بنذري وأزورك في قدمين حافيتين في عز الظهر كما وعدت » .

عاد السائق وهو حانق « أن يكذبوا عليّ أمر ممكن، اما الكذب على السيدة المقدسة فحاشى لها » .. وطلب التوبة لأنه حاول تسيير السيارة معاكساً ارادة القداسة . وعادت سيارتهم تشق الطريق وهو يزداد وعورة ويزداد عدد الناس. والحر والغبار يتكاثفان .

من بعيد بدت لهم قبة صغيرة قديمة يعلوها جرس ذو رنين حزين ، وحول القبة حشد كبير من الناس يفترشون الأرض ، يمرغون وجوههم في الرمال الملتهبة ويتضرعون .

وأشعلتها الشمس فأدارت نظرها تفتش عن فيء ، عن ظل ، عن شمس غير حارقة . اما داخل القبة فمملوء بالناس لا أمكانية معقولة لدخوله أو فتح طريق لمحاولة العبور ، وبينما هي في حيرتها وجدت نفسها داخل القبة وامام الهيكل لا تدري كيف!

أنسابت رائحة البخور إلى رئتيها فزال منها كل أثر للرمال

والأختناق .

الأيدي حولها تمتد لتولع الشموع . تذكرت دكاناً تمرّ عليه كل يوم وضع في واجهته كومة من الشموع وعلق لائحة . « شموع للنذور »، امتدت يدها تمسك شمعة تشعلها ووجدت نفسها تركع على الارض القاسية وتهمس : « أيتها السيدة المقدسة . أيتها العذراء النقية ، أنت امرأة تفهمين أحاسيس النساء ، سأطلب منك وستلبين طلبي » .. بجوارها كان ابن الجيران مغمضاً عينيه وراكعاً على الارض يحرك شفتيه بالحاح. ابن الجيران هذا يحبها ويريد الزواج منها . مطلب لا يمكن حتى التفكير بامكانية تحقيقه . ماذا تراه يطلب من السيدة المقدسة ؟ كادت تمسك به تهزه تذكره ان يطلب تحقيق امنية غير التي تعرف . فهي لا تستطيع الوفاء مهما أمّلته السيدة . امنية ابن الجيران هي متأكدة أنها لن تتحقق . وأحست بخجل شديد منه ومن السيدة العذراء . . . وعادت تكمل دعاءها .. تقول أمانيها .. تطلب تحقيق أمنيتها !! أمنيتها !! آمنيتها !! نهضت فجأة وأسرعت تخرج ورائحة البخور المقدس تملأ رئتيها اللتين كانتا مختنقتين .

في طريق العودة رأت الزوجين يدخلان سيارتهما المعطلة، وسارت دون محاولة دفع . لحقتها بناظريها حين سمعت الجارة العجوز تسأل : ما علينا، ولكن ماذا طلبت من السيدة المقدسة ؟

أجابت برضى :

— لا نعمة تعادل الايمان .

آب ١٩٦٦

الغـابة

الكلب الصغير يستلقي على الارض ويتمرغ على الحشائش ثم يقفز قفزات متوالية باعثاً نبحات متقطعة لاهثة.

كان كلباً صغيراً هزيلاً قبيحاً.عيناه ذابلتان، تبرز بقع حمراء عـــبر فروته التي لا يعرف لونها . ذيله مبتور يتحرك بسرعة اتعبتني وانا أتتبعها .

– كيف يلعب سعيداً وشكله لا يوحي إلا بالتعاسة ؟

قالت صديقتي : – انه صغير ....

: – هذا يفسر إحساسه بالزهو والفرح !!

أجابت صديقتي: نعم انهم صغار وهذه فرصتهم، فليستمتعوا بالحياة قبل أن يأتي وقت لا يحسون فيه بغير الحزن .

كانت الحديقة ملأى بالاطفال . جاءوا مع أهليهم لقضاء نهار العطلة في هذا المكان الجميل ، ولكني لم أر هذه الكثرة من الاطفال قبل ان تنبهني صديقتي الى وجودهم . منظر الكلب القبيح الهزيل السعيد شغلني عن رؤية بقية المرحين من البشر .

فجأة علا صوت بكاء، رأى الكلب الصغير الوحيد أن يلاعب طفلة ، فلحق بها يلحس ساقيها وينبطح أمام قدميها يريد عرض

خدماته ، والطفلة تصرخ باعلى صوتها وزخ من الدموع يغطي وجهها . كان الرعب وطلب الاستغاثة يرتسمان بصورة مفجعة على وجهها البريء .

أنقلب جو المكان . بتر الأطفال مرحهم وركض الكبار للنجدة، وكان أسبقهم رجل تركض وراءه امرأة ملهوفة . وصلت ذراعا الرجل الى الطفلة فارتمت على منقذها وقد انساب نحيبها بعد أن كان يقطعة الهلع .

علت تعليقات الحضور . مسكينة هذه الطفلة . . كيف أرعبها الكلب الملعون .

اما الكلب (الملعون) فكان لا يزال ينبطح هنا وهناك يلاحق السيقان لعله يلحسها .

أخذ الاب طفلته وهو يصرخ : كيف تأتون بهذا الكلب المؤذي الى هنا ؟ ! نحن ندفع ثمناً لراحتنا فيأتي هذا الكلب القذر لإزعاجنا !!

هرع النادل بكل ما في طاقته من إمكانية للاسراع وهو يحمل باثقال من الصواني مكدسة بالمأكولات والمشروبات . ولكنه ترك احماله على طاولة ، وهجم بكل نخوة ورجولة إلى حيث الكلب الصغير يضربه باحدى قدميه ويقذفه بالاخرى مبعداً إياه عن الاطفال السعداء .

سحق عويل الكلب الصغير عظامي ، والنادل مستمر في دفعه .. ثم عاد ليتهالك تحت أكوام الصواني . نهضت فتاة غربية ، لم أميز كونها فتاة إلا بعد أن علا صوتها يقرّع النادل

ويشتمه . كانت ترتدي سراويل ضيقة فوقهـــا قميص من ازياء الشبان اليافعين الحديثة تتزاحم فيه كل الألوان الصارخـة . إلى هنا والمظهر مألوف لديّ ، ولكن شعرها المجزوز قصيراً ، عدا سوالف رجالية هابطة على الصدغين ، جعلني أتردد في تعيـــين نوعية جنسها .

وقف النادل مبهوتاً لا يفقه لفظاً ممـــا تزعق به الاجنبية بلغتها الغريبة وهي ، يستفزها هذا السكوت ، ويشتد غضبها ، ترفع يدها تهوي بها على خد النادل المبهوت ، بصفعة رنّ صوتها في انحاء المكان .

لم يرفع النادل كفته يتلمس مكان الصفعة ، فقد كانت يداه الاثنتان محمّلتين وكذلك كان رأسه وكانت كتفاه .

حسبته سيوقع أكوام الصواني حين أحمر وجهه وجحظت عيناه ، ولكنه عاد يسير لتوزيع المآكل ، وحين وصل مائدتنا رأيت في وجهــه مذلة سلخت اعماقي ، فلم أدع عينيّ تلتقيان بنظرته .

علا نشيج من الطفلة التي لاحقها الكلب الصغير ... عادت تبكي وأمها تهزها في احضانها وأبوها يربت على شعرها ، ولكنها واصلت النحيب فأحنت الأم خدها تمسح به الرأس الصغير والأب يطمئن طفلته بانها ما دامت في حمايته فلن يجرؤ الكلب السيء على التقرب منها ثم يذكرها بأنه عوقب وأبعد ...

بكاء أعلى وأشد وصلني من الطرف الذي ورائي . طفـــل أكبر من الطفلة الأولى يلح على أبويه أن يذهبا معه للتفتيش عن

الكلب ، وكان يصرخ بعبارات متقطعة خلال دموعه وشهيقه ، « لعله مات الآن .. لعله مجروح ... لعله جائع ... » والأبوان يحاولان اسكات ابنهما باقناعــه بأن لا شأن له بالكلب المؤذي ، «لقد أدّب لانه أساء » ويصرخ الطفل: «لا..لا انه ليس بسيء. لقد كان يلعب ... لقد لعب معي ولم يـؤذني ... يجب أن أجده » وعاد الأبوان إلى طعامهما بعد أن يئسا من اقناع طفلهما بوجهة نظرهما . ووجدها هو فرصة مناسبة للانفلات من الرقابة فركض يقفز إلى الاتجاه الذي طرد اليه الكلب الصغير .

قالت صديقتي : — لقد برد الطعام .

التفت حولي . الكل يأكل والنادل يـــدور بينهم يخدمهم بوجهه الخجل من استكانته .

الفتاة الاجنبية وحدها تأنف أن تتنــاول الطعام وترفـع ساقيها تمدهما على المائدة وتلاحق بنظراتهـا وكلامهـا الغاضب النادل المستخذي .

قالت صديقتي : لقد برد طعامك .

من الطاولة التي وراءها سمعت الطفلة تشهـــق وهي تشير باصبعها الصغيرة ، تتبعت الاتجاه فرأيت الكلب يعود محمولاً بين ذراعي صديقه الطفل . العينان المنتفختان من البكاء تبتسمان ، كذلك الشفتان المتورمتان . كان في طريقه إلى أبويه حين سمع بكاء الطفلة فشدّ على الكلب بكلتا ذراعيـه وتوقف عن السير لا يدري كيف يجذب انتباه والديه وهما مشغولان بالطعام قبل أن يبرد .

أخذت صحني وقمت إلى حيث الطفل . رأيتـه جالساً القرفصاء مديراً ظهره إلى جمع الناس يحتضن الكلب يكاد يخنقه ، والأخير يريد الانفلات من هذا الاسر ، وعيناه العابثتان تلاحقان الأطفال . كانت يده اليمنى متدلية من بين ذراعي صديقـه ، والأخير يمسح على اليد المتدلية ويقبلها ، ومن خلال أصابـع الطفل رأيت خيوط دماء ناشفة وطزية تغلف يـد الكلب الصغير . تركت لهما صحني وعدت إلى مائدتنا .

قالت صديقتي : لقد سخن العصير وبردت القهوة .

قلت : لنذهب من هنا .

قالت : ماذا جرى ؟!

قلت : لنذهب من هنا .

ولما رأيتها تنتظر تتمـة للحديث أردفت :

ـ أتوسل اليك ، لنذهب من هنا إلى مـكان آخر ... مكان أميز فيه الخطأ من الصواب .

قالت صديقتي : ـ الصواب هو الحق .

قلت : الحق ؟ ومن صاحبه ؟ من صاحب الحق ؟!

قالت : ـ من يؤمن بهذا .

قلت : أتريدين العودة بنا إلى الغابة :

قالت : ومن قال اننا تجاوزناها ؟ من يجـع يفترس الأضعف منه ليقتات . أهذا خطأ أم صواب ؟ وما الفرق بنـه وبين ما يحدث في كل مـكان وفي كل يوم ؟!

قلت : لو أصغيت لما حدث اليوم ...

قاطعتني : — كنت أصغي وأرى وآخذ حقوقي . كل فرد اشترك في قصة اليوم صاحب حق ومصيب عداك .

وقبل أن أجد مجالاً لمقاطعتها استمرت « امضيت وقتك تفتشين عن الخطأ والصواب. من أساء؟ ومن أسيء اليه؟ وتبحثين عن الحق .من صاحبه؟ ومن مغتصبه؟ وكانت النتيجة أن تنازلت عن طعامك ثم بردت قهوتك وسخن عصيرك واضعت وقتك تتألمين للحقوق المهضومة التي لا تعرفين من اصحابها .

الفتاة الأجنبية لانها ترأف بالحيوان ، ترى من الصواب أن تصفع الانسان ، ولكن لو كان النادل أجنبياً لما كان لها هذا الحق . والنادل ضرب الكلب ولا يرى انه اخطأ بكسره يده لأنه يأخذ بحق الطفلة المرعوبة ، ولكنه يسكت عن الصفعة لأنه معتاد على الاهانات الاجنبية .

والكلب يريد اللعب والمعابثة ، والناس وحدهم لهم حق الاستمتاع بالمكان لانهم دفعوا ثمن هذا الحق والكلب لم يفعل .

لن أتعب نفسي أو أتعبك بمراجعة كل احداث هذا النهار ، فقد اجهدت نفسك كثيراً في التفتيش عن خط منطقي ، يجمع بين هذه الأحداث ولا منطق للحياة ،ولكن اعلمي يا عزيزتي أن الحق لمن يؤمن بانه صاحبه ،سواء أأحس انه يملكه أو انه سلبه .

طلب الحق هو الصواب . ويخطيء من يتساءل عن صاحبه إذ يضيعه بهذا التساؤل .

زادني حديث صديقتي حيرة ، فوقفت وأخرجت دراهم وضعتها بجوار فاتورة الطعام . قلبت صديقتي الدراهم وقارنتها

بالفاتورة . قالت « تدفعين ضعف ثمن الطعام ! اضيفي هذا إلى جملة خسائرك اليوم » .

اجبتها « الخسارة الكبرى الا أملك غير المال أرد به اعتباراً أمين » .

قالت : ولكنه لا يرجع الحق المسلوب .

... ثم مدت يدها توقفني .. « اسمعي ... كنت مخطئة . ليتنا نعود إلى عهد الغابة حين لم يكن هناك مال تشترى به بعض النفوس وحين كان الحق يغتصب » .

١٩٦٨

كُرَتي الأُرضِيَّة

لم يكن في الغرفة هواء ، ففتحت نوافذها والبابين . رأسي يؤلمني، سأبلع قرصاً أو اثنين أو ثلاثة الى أن يهدأ الصداع .

يظهر ان كل المنافذ تؤدي الى أماكن خالية من الهواء .

الصداع يلح علي . سيخف حين تذوب الأقراص، ولكنني لم أتناولها بعد . طعمها يحرق شفتي وأنا كذلك لا أستطيع تناول شيء دون مذاق . احتاج حبة منوّمة تنيمني شهراً كاملاً وحين أصحو .. تتبدل الدنيا فأعود أحس دفء الشمس وأبكي للقمر .

حين كان يمر القمر بين الأشجار أمام نافذتي ، أسدل الستارة لا أريد أن أبكي إذ أراه . لو عبر القمر شباكي ولو توقف هنا وحتى لو دخل الى الغرفة وانحنى أمامي .. رأسي يؤلمني وضوء القمر سيوجع عيني . فلا أستطيع البكاء .

دخل البرد الى الغرفة من حيث لا أدري . تحسست قدمي ، مسحت عليها بكفي ،فلم تكف حرارة يدي لتمنحها الدفء ... أريد يدي أمي تمسحان عليها .

بعد أن كانت تلبسني جوربي في الصباح الباكر من أيام التلمذة الأولى وتمسح بيدها على قدمي ،تنعم قدماي بالدفء طوال

ذاك النهار ، وصباح كانت تنسى ، كانت قدماي تقاسيان البرد طوال اليوم . لمَ لمْ أطلب الدفء من يديها كل يوم .. كل يوم .. كل يوم ؟؟ كنت أترك ذلك للأيام التالية ثم .. ثم اكتشفت أن لا أيام تالية تتلو الايام ولا تقف عندها .. لو نمت يومذاك لأوقفت الأيام ..

مرض النوم منتشر . في (نيوجرسي) وحدها مات سبعة وثمانون شخصاً ، وهناك مئات غيرهم في أنحاء الكرة الأرضية لا يزالون نياماً .

حين كنت صغيرة كنت أتمنى أن أمرض لأنام بجوار أمي . كانت تدري أحياناً انني أتمارض فتتظاهر بالتصديق وأصحو على وجهها الجميل قربي ، أشم منه رائحة عطر ، عطر شبيه برائحة الريحان المقطوف حديثاً . كنت أشفى دائماً بعد نوم ليلة واحدة في سريرها . أنا الآن مريضة رأسي يوجعني وقدماي باردتان ..

« لا تستحق الحياة أن نهتم بها ما دامت ستنتهي بالموت » . عرفت هذه الحقيقة بعد ذهاب أمي ، والآن أنا أدري هذا تماماً . أدري ان الحياة ستنتهي وانها زائلة وفانية وان لا شيء فيها خالد .

كل هذا صحيح . كله صحيح ، ولكنه لا يزيل شعوري الحالي بالموات . لا ينسيني حاجتي الى الهواء ولا يوقف صداع رأسي ولا يدفىء قدمي .

(لا يتعلم الفرد إلا على حساب نفسه والتجارب هي حصيلته

وثقافته الحقيقية حين يواجه الحياة) ، حقيقة أخرى أتمنى لو لم أعرفها. كتفاي محملتان بالشهادات لو وزعتها على سكان الكرة الأرضية لأصبح كل أميّيها حاملي شهادات تحصيل مال .

رضي الله عنك يا سريري، انك الوحيد الذي ألقي عليه كل همومي وأثقالي فتتحملها .

حين كنت صغيرة وأشارك الكبار أحاديثهم كنت أضحكهم ، وتنظر إليّ أمي ، أرى في عينيها تشجيعاً أحياناً ، فأستمر في المشاركة وأطرب إذ أجعل الكبار يضحكون . وأكتشف أحياناً ان النظرة كانت تأنيباً ولكنه كان دائماً تأنيباً حنوناً .

وكبرت وشاركت الكبار أحاديثهم وضحكاتهم : وبكيت وحدي ومع الآخرين. ولكن عيني أمي لم تكونا بجواري لأرى ما تخبئه . أتخبىء تشجيعاً أم تأنيباً . التأنيب كان دائماً حنوناً ، وكذلك كان التشجيع ... كذلك كان التشجيع . لم تشجعني أمي على البكاء ، ولكني أصبحت في حاجة اليه . لم يعد باب الغرفة يوحي لي بالطمأنينة كما كان حين تغلقه أمي . لم تعد الجدران تشعرني بالاستقلال وأمي في الغرفة معي. لم تعد الأرض تحسسني بالاستقرار كما كنت أحس وقدما أمي راسختان تتحديان كل زلازل الأرض وبراكينها. كانت تقول عيب أن يبكي الصغار. فأبلع دموعي وعيناها الوادعتان تضحكان لي . ولكنها لم تقل عيب أن يبكي الكبار . لم تقل هذا ، وانا الآن لست صغيرة وعينا أمي المحبتان لا تضحكان لي .

لا أدري ما هذه الحاجة الملحاحة الى البكاء والشكوى ، أنا لست الليلة أسوأ مني في الليالي والأيام الفائتة . فلم أحس ان روحي تلوب واني لم أعـد أقوى على الصبر . أوجاعي طالما شكوت منهـا لنفسي !! برد قدمي !! لم أصرّ أن تدفئهما لي يد أمي .

في هذه الكرة الأرضية بما عليها من قارات وبلدان وشعوب موزعة على مدنهـا المبعثرة والمتلاصقة شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً ، أنا هذا الفرد الواحد ما أهميته ؟؟

من أنا لأحس ان شكواي وتعبي وألمي وحاجتي الى البـكاء أمر فريد لم يمر عليه أحد ؟

في أنحاء الكرة الأرضية قارات مثل قارتي ، وبلدان مثـل بلدي ومدن وشوارع وبيوت مـلوءة بالنـاس . بعضهم سعداء مشغولون بسعادتهم عن أحداث الكرة الأرضية، وبعضهم مثلي، مثلي تماماً يتألمون ولا يستطيعون البكاء،وقد يصرخون ويزعقون ولا يسمعهم أحد . لا تسمعهم الكرة الأرضية المشغولة بقضاياها الكبيرة تغطي بكبرها على سعة الكرة الأرضية نفسها .

قضايا الكرة الأرضية الكبيرة !! وقضـايا الفرد الواحد الصغيرة !! تعقد مؤتمرات لحـل مشاكل شعوب ، وأهتم أنا بمشكلتي الطفيفة !! تحـار الدول في كيفية التقريب بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وأشكو أنا من ألم رأسي ؟ يهب على العـالم خطر حرب نووية ويحزنني ان قدمي باردتان ؟؟ تعقد مؤتمرات ذروة للانحياز وأبكي اذ لم يعد يبكيني القمر ؟؟ يحب

ان أحس تفاهة مشاكلي وصغر همومي أمام القضايا العالمية .

عيب أن يحس الناس مشاكلهم الصغيرة التافهة أمام المشاكل الكبرى ، يجب أن يحسوا تفاهة قضاياهم، يجب أن يفعلوا هذا ، يجب .. يجب .. يجب ..

يجب أن ينسوا همومهم أمـــام القضايا العالمية المعلقة والتي استعصى حلها . مشاكل يستعصي حلهـــا !! النزاع بين الهند والباكستان على كشمير !! الصراع العقائدي بين روسيا والصين. قضية نزع السلاح ! قد تبقى هذه المشاكل دون حل . قضايا لا تجد حلاً مثل مشاكلي تماماً .

وإذا نجحت جهود الدول وحلت هذه المشاكل العالمية ، إذا حلت هذه القضايا ، فماذا يفعل الناس بمشاكلهم الصغيرة ؟؟ هل يرفعونها الى الصعيد الدولي ؟ وهل هو قادر على حلها ؟

هل تستطيع كل مؤتمرات الذروة قتل اللهفة في نفس تحنّ ؟

لو نجحوا في قضية نزع السلاح؟ أتراهم قادرين على نزع ستائر الكبرياء عن قلب لا يريد أن يتكبر ؟

إذا لم يستطع الأفراد ان يتفهّوا مشاكلهم ، فماذا يفعلون؟ كيف نلزمهم بهـــذا الحس ، وكيف نجعلهم يشعرون بضآلة همومهم وهي كبيرة كبيرة ؟

هل تستطيع كل الدعوات الى اللاانحياز ان تجعلنا نساوي فيما نحسه نحو الآخرين ؟ أن نرى في كل العيون العينين البعيدتين، ونسمع في كل الأصوات الصوت الذي سيبقى قريبـاً دائمـاً ؟ لو أوقفت تجارب القنابل الذرية؟ كيف نتخلص من أحمال تجاربنا؟

كيف نعود الى الفطرة البريئة التي تنتظر الخير وتتفاءل بطلوع كل صباح جديد ؟؟

كيف نعيد فينا المقدرة على المحبة؟هل بمقدور كل المفاوضات السياسية لملمة نفس مبعثرة ؟

قدماي باردتان ولم يتوقف ألم رأسي .

لو عقدت ألف مؤتمر ذروة مع نفسي ولو وسطتها ألف مرة لتعقد صلحاً مـــع مشاعري . لو استعرضت ألف مرة مشاكل الكرة الأرضية وقارنت بينها وبين همومي . لو بلعت ألف مرة دموعي وتصورت عيني أمي تريدان لي أن أضحك .

لو قلت لنفسي ألف حديث وحديث .

هل تمتلىء غرفتي بالهواء ؟ هل يوحي لي باب غرفتي الموصد بالاطمئنان ؟ هل تحسسني الجدران العـــالية بالاستقلال ؟ هل يشعرني عدم حدوث زلزال بالاستقرار ؟

هل يخف ما انوء تحته من أحمال الشهادات ؟

أيزول عن رأسي الصداع ويعود الى قدمي الدفء ، فأحس الرضا في كرتي الأرضية ؟

صيف ١٩٦٥

أقـدارُنا

كانت الصفات التي يطلبها من زوجة المستقبل بسيطة سهلة يسيرة : يريدها شقراء طويلة ، رشيقة على أن لا تنقلب رشاقتها الى بدانة في المستقبل وذات شخصية قوية ، كما يريدها من أسرة محافظة .

وهو لا شك سيحب صاحبة هذه الصفات . فالحب عنده لا ينفصل عن العقل .

كنا نسأله : ألا يمكن أن يتنازل عن بعض مواصفاته ليجد المحظوظة التي ستحمل اسمه ؟ فيؤكد انه سيجدها وما دام الرجل هو الذي يبدأ الخطوة الأولى في مشروع الزواج فلمَ يتنازل عن طلباته وهي متواضعة ومعقولة والدنيا ملأى بالفتيات ؟

أما أمه فلم تكن راضية عن هذه الطريقة في البحث عن زوجة ، فهو يعاند القدر لأن زوجة المستقبل موجودة في مكان ما على سطح هذه الأرض . لقد عينتها الأقدار له ساعة مولدها وساعة ولد هو ، وسيلتقيان بطريقة لا تحتاج الى بحث أو تقصٍّ .

وتطوعت شقيقاته ، وتطوعنا ، نحن اصدقاءه ، بالبحث

فبدأنا حملة التفتيش وطالت الحملة وتعب الجوالون قبل أن يعودوا اليه بأخبار فشلهم .

نصحناه بأن يكتفي برشاقة حاضرة دون وعد بالاستمرار، وسرعان ما أخذ بنصيحتنا ورضي، كأنه كان ينتظر أن نعرض عليه فكرةالتنازل عنأحد مطالبيه. واستفدنا نحن الباحثين من هذه الفرصة فنصحناه في اليوم التالي أن يتنازل عن مطلب ثان، فبادرنا الى القول بأنه قرر استبدال صفة الشقرة بالسمرة، بعد القيام باحصاء صفات كل من رأى من النساء أوصله الى نظرية تقول ان السمراء تحتفظ بنضارتها فترة أطول . فعمته مثلاً تبدو أكبر من عمرها بكثير . عللنا له ذلك بسبب كونه ابن أخيها فلم يثر في وجهنا كما انه لم يشاركنا الضحك .

وهكذا عدنا الى البحث من جديد بعد أن تغيرت المقاييس. وكنا نسأله بين حين وآخر عما وصل اليه هو من عملية التقصي ، فيقول انه شاهد كثيرات يحملن ما يريد من الصفات ، ولكن قلبه لم يهف الى واحدة منهن ، ثم أسر لنا صديق انه رآه يقرأ صفحة اعلانات الزواج في احدى الصحف . فكرنا أن ندبر له مقلباً ، ولكن القداسة التي كان يحيطها بفكرة الزواج جعلتنا نفكر بمستقبلنا فتراجعنا خوفاً من العقاب .

ثم لم نعد في حاجة للتفكير في المقالب بعد أن أخبرنا هو يوماً انه يتمنى لو يقدم شكوى قضائية على ما سماه « الخديعة في فن التصوير الفوتوغرافي » . فعدنا ننصحه بالتنازل عن صفة أخرى من مطالبه ، فسألنا على الفور : « أية صفة تريدونني أن

أتنازل عنها » ؟

وارتبكنا ، فقد كنا نريد إحراجه دون أن نخطط جواباً لهذا السؤال . وانتظرنا ان يتلفظ أي منا بصفة لنوافق عليها مباشرة ، قال أحدنا : الزوجة القوية الشخصية تتعب زوجها وتفقد أنوثتها فوافقه الصديق بسرعة عجيبة . وفكرنا ان نعرض عليه حذف بقية المطالب ، ولكننا فضلنا الانتظار فترة قبل أن نصدمه بكل هذا دفعة واحدة .

تملكتنا جميعاً رغبة ملحة في ايجاد العروس بعد أن رأيناه في الأيام التالية خجلاً من تنازله عن الصفات المطلوبة ، فقد جاءنا ليقول ان قوة الشخصية تقترن بالعلم ، والمتعلمة ولا شك ، تعتز بشخصيتها ، أما القدر المتوسط من التحصيل فيكفي المرأة . وهو يستطيع قراءة كتاب فلسفة بدل مجالسة زوجة مثقفة ، ولأول مرة سمعناه يقول كلاماً منطقياً .

أما المحافظة فأمر ميسور لأن كل من نعرف من الأسر محافظ والحمد لله ولكن ... خبر هروب ابنة رئيس البلدية مع سائق السيارة جعلنا نؤمن ان المحافظة لا تأتي من الأسرة ، وإنما من النفس ، وكيف لنا أن نمتحن نفوس الفتيات دون أن يكون معنى هذا ان الممتحنة غير محافظة ؟!

الخبر المفاجيء الذي أذهلنا جميعاً هو اعلان خبر زواج صديقنا! هكذا وبدون مقدمات وبدون استشارتنا!! وسارعنا اليه نستطلعه الخبر : أين وجدها ؟ وما هي صفاتها ؟ وكيف لقيها ؟ لم يشأ صديقنا أن يتحدث في التفاصيل فهو لا يحب

الخوض في سيرة السيدة حرمه ، انها ابنة خالته ، وقول أمه عن القدر والقسمة والنصيب صحيح .

وتذكرنا بعد انصرافه انه لم يدعنا الى زيارته فعتبنا عليه كل هذا التكتم ، ثم غلبنا الفضول فعدنا الى البحث لنكشف القصة . وبدأت جولة بحث جديدة عاد منها كل واحد بخبر ، فاجتمع لدينا ان ابنة الخالة كانت تحب صديقنا منذ مدة وانه أحس بوجودها حين جاءها خاطب يطلب يدها .

تذكرنا أم صديقنا كم كانت أكثر حكمة وتعقلاً منه ومنا حين تركت الأمور مرهونة بأوقاتها المقدرة . وقررنا أن نذهب كلنا لزيارتها والتبريك لها ، ما دام الصديق لم يشر الى هذه الفكرة .

قلنا للام ليت الخاطب جاء قبل جولات البحث ، فقالت : كان يجب أن يأتي في هذا الوقت . تطلعنا اليها نعجب لايمانها القوي بالقدر ، فأضافت وعيناها تلمعان ذكاء : يجب أن نصنع أقدارنا بيدنا .

خرجنا وقد أذهلنا ذكاء الأم ، ثم التقت نظراتنا ونحن نتساءل : ترى ما هي صفات العروس ؟

١٩٦٣

.. ثم تعودُ المَوْجَة

تمطت في فراشها ودفعت الغطاء بقدميها ثم عادت تسحبه الى ما فوق رأسها،وأغمضت عينيها، تستطيع البقاء خمس دقائق أخر . وفي نظرتها التالية الى الساعة كانت قد مرت دقيقتان فقفزت بكسل .

لم تقف طويلاً امام الفساتين ، بل اختارت أقلها تجعدا . أما شعرها فسيطيره الهواء . تستطيع ترتيبه بعد وصولها المكتب .

عبت فنجان الشاي واقفة . يجب ان تذكر الخادمة بأن تعود الى شراء النوع القديم ، ستشربه غداً بدون حليب البودرة لعل الطعم القديم يعود اليه .

في السماء بعض غيوم وقد نسيت مظلتها.هل تصعد لتجلبها؟ بدت لها الدرجات كثيرة والمصعد سيتأخر اذا طلبته . فلتمطر السماء ولتبللها . كانت تفعل ذاك وهي طفلة وتزجرها أمها . لن يزجرها اليوم أحد .

كان الطريق قليل الازدحام ، فأبدى السائق رضاه . وتعجبت هي: الطريق إما مزدحم أو قليل الازدحام، هو دائماً على احدى هاتين الحالتين . فلم الرضا ؟ ولم عدمه ؟

وفجأة وقفت السيارة محدثة صوتاً ثاقباً مزعجاً . وتراكض المارة يستطلعون الخبر،تطلعت اليهم بسخرية : كانت سيارة على وشك ان تصدم السيارة التي تركبها ثم .. ثم لم يحدث الاصطدام.

وحين أمسكت مقبض الباب لتنزل ، آلمتها كفها . عليها خطوط حمراء . مسحتها .. في المكتب قابلها الحاجب بابتسامة عريضة ، وما كادت تجلس حتى بدأ رنين الهاتف يتلاحق يحمل اصوات المباركين. وجاء الزملاء مهنئين، سألت ما الخبر؟وظنوا انها تتجاهل الامر ، تريد التخلص من دعوة يعدون انفسهم بها، ولم تفهم شيئاً مما لحوا اليه ، ثم ذكروها انها استلمت أمراً ادارياً بترفيع راتبها . قالت : حدث هذا منذ بعيد ، منذ الامس أو قبله ...لا أتذكر الزمن تماماً. ونظر اليها احد الزملاء باستغراب وتطلعت فيه تستغرب : لمَ يستغرب ؟!

رنين الهاتف التالي حمل اليها خبراً جديداً ، قال موظف شركة الطيران ان الصندوق الذي سيحمل المرحوم يجب أن يكون ذا ابعاد معينة ، فارتفاعه وعرضه وطوله محدد ، وإلا استحال ادخاله الى الطائرة . سجلت المقاييس وأخذتها الى الموظف المسؤول . كان الاسى واضحا عليه وهو يستمع اليها، ولما انتهت قال : انه محزون للحادث ، فطالما حدثه الفقيد عن زمالته لها في الجامعة . وتجسدت الالفاظ فجأة امامها ! معنى كل هذا الحديث ان هناك شخصاً ميتاً. سألت عن اسمه فذكر لها اسماً لشخص كان يزاملها في الجامعة، وعلى صورة ادق كان يحبها. عادت الى غرفتها وهي تردد ابعاد حجم التابوت الذي سيشحن

فيه الى الوطن زميل كان يحبها .

كان في نظرات الحاجب فضول محذر . وتتبعت نظراته فوصلت بها الى يدها : الدماء تنزف منها وقد تيبس قسم على اصابعها ورسغها . كان المنظر بشماً فأشاحت ببصرها عنه .

سمعت الحاجب يسأل : ألا تؤلمك يدك ؟ يدها تؤلمها !! خبأتها بالكف الاخرى ، أعاد الحاجب : « ألا تؤلمك يدك » ؟ وطرقت كلمة الألم اذنيها بقوة ، فرفعت نظرها وحدقت اليه وطال تحديقها قبل أن تجد نفسها تقول : « يظهر ان يدي مجروحة . » أدارت وجهها عن نظراته المستغربة فطالعتها الجدران. كانت جدران أربعة سميكة تحيط بها ، هناك على النافذة ستارة ثقيلة تغطيها بكل وقار . قامت وأزاحت الستارة . السماء ترسل زخا من غيمها الكثيف . أسندت خدها الى الزجاج البارد وعبر الشهيق كانت تردد « : اذا كانت مقاييس التابوت غير مضبوطة فلا يمكن شحنه بالطائرة . سيدفن في أرض غريبة لن يعود الى الوطن ينام في تربته » .

«صباح الخير . . صباح الخير» ، والتفتت لتجد مراجعاً يسأل عن مصير عريضة تخصه . تستمهله وتعود الى طاولتها . تعد الملفات حسب ترتيبها وتبدأ في القراءة وتضع بالقلم الرصاصي خطاً تحت النقاط الرئيسية في البحث ، ويرن جرس الهاتف عدة مرات يقاطع ، فتجيب وتلبي الطلبات وتعاود القراءة ورسم الخطوط . وتسحب من هذا الدرج دفتراً فيه اسماء الاشخاص الذين يجب أن تتصل بهم ، وكتيبا بالاشخاص الذين ستستعين

باسمائهم . وقبل ان تنتهي من قراءة الملف كانت قد أعدت كل المرفقات والاوراق اللازمة، سحبتها يداها من الادراج الكثيرة الملصقة بطاولتها . ويجيئها الحاجب بفنجان الشاي ويأخذ فنجان القهوة الفارغ .. وتتأمل الفنجان الفارغ وتتطلع الى الخطوط المرسومة تحت السطور والى الاوراق والمرفقات .. ويرن الهاتف وحين ترجع السماعة ترى يدها قد سحبت دفتراً وفتشت فيه عن صفحة معينة وقرأت اسماً كان جواباً لما سمعته. آخر رشفة من فنجان الشاي كانت باردة .

الايام ليست حلوة . كان هذا آخر ما استطاعت ان تتوصل اليه وهي تغور في اعماق نفسها تفتش عن قبس رضا ، وتتلفت حولها تستطلع العيون لعلها ترسل اليها بعض الانتظار .

الايام غير حلوة ! لم تكن تريد أن يكون هذا هو اكتشافها النهائي . ظنت الاعتراف بحقيقة مشاعرها ينهي مشكلة البحث ويريح النفس المتعبة، ولكن الاعتراف زادها تعباً .

ما الذي جعل الايام غير حلوة ؟ وكيف تعود حلاوتها اليه ؟ ومن بمقدوره ارجاع تلك الحلاوة ؟ كم جلست تتأمل في لا شيء وتفكر في كل شيء ثم تعود بحصيلة فارغة ؟ وتساءلت في صمتها الطويل الباحث ماذا تطلب لو اعطيت خاتم لبيك ؟ وعادت تتذكر الناس فرداً فرداً، فلم يكن واحد منهم عبدلبيك. وجالت في حنايا الزمن ، في سنواته وايامه ، وساعته ودقائقه فاكتشفت ان ما كان الافضل ليس هو الافضل . بقي المكان . المنطقة الاخيرة التي قد تجد فيها الضائع. وأثار تعجبها ان بعض تلك

الاماكن بدا قاسياً جاحداً حيث ظنته أليفاً عزيزاً .

أحسّت بقلبها ، قلبها الذي عهدته كبيراً ، يصغر وينكفيء على نفسه ويتقلص حتى لا يتسع لعروقه التي تنبض .. وأصغت الى نبضاته .. أصغت اليها، كانت رتيبة ، منتظمة ، لابادرة تبشر بتغير تواترها . وهبط عليها شلل اعمى فلم تعد تستطيع تحريك يدها تبعد ذبابة تطن .

ستطلب من خاتم لبيك حالة تكون فيها النفس مستعدة للاهتزاز ، ستطلب ان تصبح في حالة (حب) . وأرعبتها الكلمة حين فكرت بها ، فاغمضت عينيها ورأت الدنيا ملأى بالنور وأحست الاشياء كل الاشياء من داخل النفس ومن خارجها تعود الى أماكنها الطبيعية الاصلية . فلا تضارب ولا تطاحن ولا تناحر . دفعت بكفها، تستيطع دحر جيش بأكمله.. ستنام على هذا الحلم.. ستنام عليه وتغفو .. وحين تستيقظ ، حين تستيقظ من هذا الوهم الجميل وتجد الاشياء قد ماتت، هل يستطيع خاتم لبيك استرجاع الحب من نفسها دون ان يترك فيها اشلاء ؟ واذا ترك الاشلاء فهل هو قادر على دفنها ؟

لتنم الآن .. لتنم الآن وتترك الباقي للصباح . نعم سيطلع الصباح وستقفز من فراشها بكسل وتختار من الفساتين أقلها تجعدا وتشرب الشاي بـــلا حليب ، وسيبقى طعمه الجديد جديداً . وتحمل مظلتها وليس في السماء غيوم وتدخل المكتب ترفع ورقة الروزنامة القديمـة .. وتقرأ برنامج اليـــوم : كله جديد وليس لها هي فيه جديد . ستستيقظ صبـاحاً متمنية

لو استطاعت إطالة فترة النوم .. لن تستطيع تغيير شيء من هذه النفس أو من خارجها . . لن تستطيع ، لن تستطيع .

ومدت يدها تريد دفع هذه الافكار . انها بحاجة الى نوم عميق .. عميق .. عميق . في القنينة عشرون حبة خضراء بلون الفيروز . بلعت حبة واسترخت تنتظرا مفعولها . القنينة بجوارها وفيها تسع عشرة حبة اخرى كلها خضراء بلون الفيروز النقي . لم لم يجعلوا لونها أحمر أو اسود ؟ هل أغرى هذا اللون الاخضر كثيرين فبلعوا كل حبوب القنينة ؟؟ قامت من الفراش الى المرآة . لم يكن شعرها مرتباً وقميص النوم ليس أفضل ما عندها ، ووجهها متعب .

في خزانتها بعض المال وحوائج تريد لو أخذتها من هنا لتوصلها الى من تفضّل . كم في الخزانة من ثياب جديدة !! من سيدشنها ؟ ليتها تستطيع اعطاء حوائجها الثمينة الى من تحب . . يجب ان تفرغ الخزانة قبل أن .. وأحست بقدميها تسحبان ، والوسادة تغرق رأسها . ابعاد الصندوق يجب ان تكون مضبوطة والا استحال شحن الميت الى الوطن . تدفن في ارض غريبة وعاشت في أرض غريبة . هل كانت تحبه ؟ أو كان هو يحبها ، ام انه وجد في حبه لها وعداً بوم جميل ؟ زاد الظلام كثافة ، انزلقت قدماها على ارض لزجة فانتفضت ، حاولت التطلع الى الساعة فلم تستطع فتح عينيها .

حين فتحت عينيها صباحا كانت الشمس تملأ الغرفة

والساعة تشير الى العاشرة . قامت تتطلع عبر النافذة، السماء شديدة الزرقة وكتل من الغيوم البيضاء يدفعها الهواء بقوة . الشارع مملوء بالمارة وبالسيارات والبحر مائج بهدوء. تسير الموجة الى الشاطىء . ثم تتكسر عليه وتنتهي هنا ، ولكنها هي الموجة نفسها بعينها تعود من حيث جاءت لتتكسر ثانية على الشاطىء وتعود .. سمعت زوجة أبيها تسأل : لم تأخرت عن العمل ؟ أجابت : لن أذهب اليوم اليه ، سأذهب الى مكان آخر وآخر أفتش عبر هذه الصحراء الواسعة عن الواحة .

كان في عيني زوجة أبيها كالعادة كل الشكوك والاتهام والدس، فأدارت نظرها الى النافذة ثانية تتأمل الشمس الساطعة وكتل الغيوم يدفعها الهواء بشدة والموجة تبدأ من جديد . أحست عيني زوجة ابيها تخترقان ظهرها تحملان الدس والاتهام والشكوك . فتبسمّت اذ تذكرت أنها خضراوان ..

كانون الثاني ١٩٦٥

قِصَّةٌ أندلُسِيَّةٌ

ـ أرجو ألا تكوني إيطالية ؟

ضغطت الزر الأول فهبط فنجان الورق المشمع .

ـ أرجو ألا تكوني إيطالية ؟

أدارت رأسها تستفسر عمن يوجّه اليها الحديث .

ـ أرجو ألا تكوني إيطالية ؟

تبسمت لأمر هـــذا الغريب يطلب شيئاً تستطيع منحه بسهولة ..

ضغطت زراً ثانياً فتساقط مسحوق البن الى الفنجان .

اقترب الصوت : أرجو ألا تكوني إيطالية ؟

« كيف ينتظر منهـــا هذا الغريب أن تحدثه بهذه السهولة ودون مقدمات » ؟

ـ أنت حتماً لست إيطالية ..

ـ ولم لا تريدني أن أكون إيطالية ؟

ـ لتكوني اسبانية ..

ـ يؤسفني ألا أستطيع تلبية طلبك ..

ـ فمن أين لك هذه السمرة ؟

رفعت صوتها ليسمعها كل من في القاعة تقول بكبرياء : أنا عربية .

— إذن فأنا عربي ..

ملأها قوله اعتزازاً . اسباني يعترف بأصله العربي !! مدت اصبعاً تريد ضغط زر الحليب .

فمد الاسباني يده يوقفها :

— العرب يشربون قهوتهم سوداء ..

كان يجلس على كرسي بجوار آلة تعد القهوة ، تقدمها بعد إسقاط قطعة نقود فيها ، وضغط أزرار مركبة عليها . فهناك زر ينزل فنجاناً فارغاً من الورق المشمع وآخر ينزل مسحوق القهوة وثالث ينزل مسحوق الحليب ورابع لمسحوق السكر وآخر ينزل الماء الساخن . وظيفة الاسباني إصلاح المعطل اذا عصى أحد الأزرار واجبه ، أو اعادة قطعة النقود الى صاحبها اذا طال العصيان ، ونادراً ما يحدث هذا . ولكنه كلما رآها ساعة الفرصة أخبرها ان الآلة على وشك ان تتعطل ، والأفضل ان يضغط لها هو الأزرار فينزل الفنجان ومسحوق القهوة والماء الساخن.ويؤكد انه لن يضغط زر مسحوق الحليب أو السكر، فالعرب لا يشربون قهوتهم حلوة بيضاء ، كما يفعل من لا يتذوقها من أهل هذا البلد .

« غريب يكلمها فتجيبه ! لقد اجتازت المرحلة الأولى من الامتحان بنجاح . غريب يكلمها فتجيبه ولا تسأل ذكرياتها إذناً ولا تخشى مستقبلاً مراقباً . ستعيش لحظات أيامها بلا

ماض يشدها اليه ولا مستقبل تشده اليها » .

أما أقسمت لنفسها أن تعيش حالة سفر ! دون عودة الى ماض أو استباق الى مستقبل ؟ انهـا اليوم تلميذة من هؤلاء الكثيرات والكثيرين الذين جاءوا ليتعلموا . جاء هؤلاء كلهم يتعلمون ، وستفعل مثلما يفعلون ، والمحادثة أفضل طريقة لتعلم لغة جديدة ، كما أخبرهم الاستاذ في أول ساعة من أيام الدرس . لأجل هذا تحادث الاسباني . تبدأ التعليم بطريقته الصحيحة . كلهم جاءوا ليتعلموا وهي جاءت كذلك لتتعلم .. ستتعلم .. ستتعلم كيف تنسى . أليس تعلماً أن تنسى ؟ بماذا تبدأ ؟ بالأيام الحلوة البعيدة أم بالأيام المرة الموجعة ؟ أصحيح انها تريد أن تنسى ؟ كان الماضي من الغنى بحيث يؤلم التفريط به ، وكان الماضي من الغنى بحيث يجب نسيانه . ستدع الاسباني يحدثها عن آثار العرب ، حديثه يطربها ويشبع غرورها الأنثوي والقومي . انها هنا تلقى انتصاراً دون ان تدفع خلجة واحدة ثمناً له . ما عليها الا ان تصغي في حاضر آني ، مقطوع عما قبله وما بعده .

وعرفت انه ينتظر ساعة نزولها الى شرب القهوة . وفرحت لذلك ، وأصبحت تنتظر تلك الساعة ثم تعود لتحاسب نفسها وتعاتبها وتقسو في العتاب ، فهي لن تسمح لهذا الغريب غداً ان يرفع الكلفة بينهما الى هذا الحد .

وفي الغد كان ابن العم كما سمى نفسه يعود الى حديث الأندلس وتعود هي الى الإصغاء .

سألها يوماً ان كانت تشم رائحة نتنة ، فنفت ذلك ، فقال انه يشمها ، وسيعين مصدرها ، فهي كل هؤلاء ذوي الأصل غير العربي . العرب أول من أنشأ الحمامات في الدنيا ، واسبانيا لا تزال مملوءة بها . تطلعت الى سراويله التي لم تر الماء منذ نسجها وقميصه الأسود الذي لم يبدله منذ تمنى ألا تكون إيطالية ، فضحك وهو يرى نظرتها اليه :

- ان ما ترينه هو هيئتي الخارجية ، أما حقيقتي فنظيفة غسلها حمام عربي .

لا يهمها ان كان صادقاً ، فطالما حاسبت الناس على كلامهم ، وفتشت عن الصدق فيه وصدقت ما كان غير صادق منه ، وتألمت حين وجدت نفسها تخدع نفسها . اليوم ستسمع الكلام العابر على انه عابر وستعيش أيامها بكل ما يتاح فيها من متع صغيرة غير واعدة . لن تفتح قلبها لجديد ، ان كان هناك مكان لجديد .

وتطوع الاسباني ان ينقل اليها أخبار العالم العربي صغرت أم كبرت ، وكانت تدري ان بعض تلك الأخبار لا يحتاج كل الحماسة والحدة اللتين يبديهما ، لكنها تطرب اذ تجد إسبانياً يعتز بأخبار أجداده العرب ، وحين يطيل الكلام تنظر الى ساعتها فيبتر حديثه . هناك الكثير منه وهو متأكد انه سيتمه غداً وبعد غد وفي الأيام الكثيرة التالية .

أثار تأكده دلالها العربي ، فلم تنزل لتشرب القهوة ، وتعمدت الجلوس في الصف تستنسخ درساً يمكن تأجيله اسابيع.

صعد الاسباني . لم يبد قلقاً أو لهفة ولكنه جاء يسألها لم لم تنزل وقد رآها تدخل الصف ؟ هل ملّت القهوة ؟ أم ملت حديثه ؟ واستطرد ضاحكاً ، انها لا يمكن أن تمل صحبته ، فهو قريبها الوحيد في مدرسة الأجانب هذه . ثم حدق اليها وقال فجأة :

– حين نصبح عجوزين أستطيع أن أتصور شكلي وشعري أبيض ، أما أنت فهل يمكن ان يشيب شعرك الأسود الطويل ؟

وفوجئت بتحول مجرى حديثـــه ، التحول الذي كانت تنتظره ، ولكنها عادت فتماسكت وأجابت غير فاهمة مرامه :

– لا تسألني عن المستقبل ، لم آت هنا لأخطط له ..

– وهل كان شعرك جميلاً هكذا حين كنت طفلة ؟

– تظن حديث الماضي أقرب الى قلبي من حديث المستقبل؟ نعم انــه كذلك بحيث لا أريــد التفكير فيه ولا في ناسه . كم تحمسوا وكم ضحوا وكم خذلوا . وكم تحمست وخذلت معهم !

– في مدينتي الأندلسية ..

– نعم ماذا هناك ؟ حدثني عنها اليوم وغداً وبعد غد وفي كل يوم آت .

وعرفت منه انه لن يعود الى وطنــه مباشرة ، وانه يتعلم الانـكليزية ليستطيع التنقل بين بـــلدان أخرى . وحدثها عن مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية ، فكأنها تصغي الى عربي من بلدها يحدثها عن طموحه وآلامه وأمانيه ، وعمـا يريـد لوطنه حين يعود اليه .

قطع يوماً حديثه ليعلن انه مسافر بعد عشرة ايام . رأت

شروداً على وجهه ، فأجابته ضاحكة :

– سنلتقي في الأندلس .

ارتسم حزن على عينيه وخيبة أمل ، فأكملت .

– أنت نفسك تسميها الأندلس ، فلم أزعجتك هذه التسمية مني ؟

فازدادت مظاهر الحزن عليه وصمت .

كانت في حاجة حقيقية لاستنساخ مادة الدرس فمكثت في الصف فترة الفرصة ، وسمعت الاسباني يسألها ان تنزل لتشرب قهوتها . كان في صوته نبرة آمرة ، فقالت : انها واثقة الآن من أصله العربي ،ولكنه لم يبتسم ، وأعاد قوله بلهجة صارمة فتبعته . وبدأ يعد لها القهوة ثم توقف . وظهرت عليه كآبة . قال انه كذب عليها أمس ، فهو مسافر بعد غد . سألته :

– لم كذبت ؟

قال : كي أخفف عليك التفكير في أمر سفري .

وعجبت لقوله : « ما أهمية ان يسافر هذا الاسباني اليوم أو بعد سنة » ؟

استلفت نظرها منظر كرسيه الفارغ في اليوم التالي ، وانتظرته ان ينبع كعادته من بين الطلاب المزدحمين ، ولكنه لم يظهر . توقعت نداءه لها (ابنة عمي) ولكن الأجانب كانوا يحيطون بها . اقتربت من الآلة والكرسي بعد فارغ . دفعها حشد من الطلاب الى الآلة ولم يظهر ابن عمها . اسقطت قطعة النقود ، وكان قربها تلميذ ينتظر دوره ، فوجدت نفسها تسأله

عن الأندلسي . أجاب : بأنه سافر أمس .

– ولكنه قال ان موعد سفره الغد ، هل أنت متأكد انه سافر ؟ أأنت متأكد ؟

كان التلميذ قد ابتعد عنها . هل تسأل آخر ؟ الآخرون ينتظرون دورهم لأخذ قهوتهم . ضغطت الازرار والكرسي الفارغ يقول لها ألف حديث . حملت فنجانها ومشت . رشفت منه رشفة فتذوقت طعماً جديداً . مسحت عينيها فرأت قهوتها ممزوجة بالحليب .

عادت عيناها تمتلئان بالدموع ، لا تدري أين تقودها قدماها ، ولا تدري ماذا تفعل ؟ الذي تدريه انها ترجو ألا تكون قد أضافت الى مخزن الماضي قصة اندلسية .

١٩٦٤

سَنَة سَعِيدَة

كان يدري ان ابتسامته بلهاء ، فطالما قال هذا لنفسه وهو يتمرن عليها أمام المرآة ، ولكنها خدعت كثيرين . ولعلهـا لم تفعل ، ولكنه يريدها أن تكون كذلك .

انه الآن في حاجة لضحكته البلهاء يرسمهـا وهو يرد تحيـة صديق عابر ، وقد لا يكون عابراً ، فقد أصبح لكل فرد يلاقي أهمية قد تحدد مصيره . ويظهر ان الصديق العابر خدع بالضحكة البلهاء فبادلها إياها بهزة محترمة من رأسه ذي الشعر الكثيف .

كانت الساعة العاشرة صباحاً في وقت لا يسير فيـه الرجال العاملون في الطرقات . سار يوماً في وقت مبكر ، رسم ابتسامته البلهاء لكل من قابل ، ولكن سؤالاً من أحد معارفه عيّن له متى يمكن أن يرى خارج البيت .

– ماذا تعمل الآن ؟

– كنت أعمل في المؤسسة الانشائية .

– تقصد قبل أن تغلق أبوابها ؟

لماذا يبرهن الناس له على ذكائهم ؟ السير في الشارع في الساعة العاشرة يبرهن للاذكياء عن عطالته فيسكتون تأدباً . والسير في

ساعة مبكرة ؟ عليه في الحالـين أن يرسم ابتسامته البلهاء .

أين تراها الآن ؟ أين هي ؟ وأحس بحنين جارف اليهـــا . يريد أن يراها ولو دفـع كل كرامته ثمناً للحظة لقاء . لن تسأله ان كان قـد وجد عملاً ولكن السؤال النائم في عينيها سرعان ما يصحو فتغطيه بابتسامتها الذكية ويجيبها ... لا يملك غـير ابتسامته البلهاء .

واجهات المحلات منسقة بزينة العيد ذات الألف لون ولون. في مثل هذه الأيام أو بعدها بقليل أغلقت المؤسسة الانشائيـة أبوابها . كانت هدية السنة الجديدة للموظفين دفـع تعويضهم والاعتذار عن الاستمرار في العمل . السنة الجديـــدة ستنتهي ويحس أن الصراع سينفد معها . رسم للايام ضحكته البلهـاء . وكذلك فعل للناس ولم يستطـع أن يستغفل أصغر عضـلة في وجهه لتنبسط له .

الأمهات يمسكن بأيدي صغارهن والصغار تقودهم يد الأم . رضى في عيون الأمهات وفي عيون الأطفال لهفة . لهفـــة إلى شجرة العيد المحملة بالهدايا والمعلقة عليها كرات براقـــة ملونة ملتفة عليها أشرطة مذهبة ... تحمل مفاجآت . فتـح علب الهدايا .

والكبار ؟ ألا ينتظرون مفآجات العيد وغير العيد ؟

دفـع قدميه دفعا إلى مخزن ألبسة رجالية . توسل إلى يـده أن تمتد ، تختار رباطاً ولكن أصابعه تشبّثت ببطانة جيبـه . رمى السيكارة ، سحقها سحقاً بقدميه الأولى والثانيـة . ماذا

يفعل بيده الطليقة ؟ بطانة الجيب الآخر لا يتحصن بها أحد . يده المستسلمة المرتخبة تعصاه ، تصر على استرخائها المستسلم . يناشد عينيه المعونة . تمتد ، تتطلع ، تقلب الأربطة والقمصان والبدلات !! لا ترى في البضاعة ألواناً متغايرة أو نوعية متعددة . يلح طفل أن يسحب يده من يد أمه التي تختار رباط عنق . يد الطفل الطليقة لا تصل إلى حزمة الاربطة . لا يحس أن طفولته تخصه أو انه مرّ عليها . كأنه غريب يتفرج على اللهفة في عينيه طفلاً والغبطة في عيون أهله باللهفة في عيني ذاك الطفل .

بضعة أيام وتنتهي السنة ، وهو بعد حائر ، هل يترك البيت في الصباح مع العاملين ، أم يتسكع في الطرقات في الساعة العاشرة ؟

متى يكون رسم الابتسامة البلهاء أسهل؟متى يلقى عدداً أقل من المعارف؟ ومتى يكونون أكثر تأدباً فلا يسألون . وإذا سألوه وأجاب فلا يبرهنون له على ذكائهم؟ كان في الأيام الأولى والاسابيع الأولى من اغلاق المؤسسة الانشائية يحتك بالاصدقاء والمعارف ويجيبهم ان لم يسألوا. وكانوا هم يرسمون ابتسامة بلهاء جواباً على جوابه . والآن.. أصبح اختصاصه أن يرسم تلك الابتسامة حين يقرأ اعلانات عن وظائف شاغرة وحين يتلقى الجواب بالاعتذار ، ثم صار يرسمها حين يكون وحده .. يتمرن عليها .

في المخزن الذي أمامه حاجيات نسائية . قدماه تلحان بالدخول ، ويده تتمنى تقليب الحوائج والأخرى تقفز للاختيار .

أحس بحنين جارف اليها . يحمل اليها علباً وعلباً ملفوفة بأوراق ملونة ومربوطة بأشرطة زاهية تفتح العلب بشوق طفل وينتظر هو سعيداً بفرحتها . ينتظر عينيها تدعوانه للعيد . ستبتسمان ، ابتسامتها الذكية تخفي ألف سؤال ويجيبها هو ... بابتسامته البلهاء .

يصطدم بكتف : انها كتف صديق يبتسم له، يبادر هو إلى الحواب :

ـ أنا عاطل عن العمل منذ حوالي السنة مع اني أحاول كل ما في وسعي للحصول على وظيفة . البطالة أرهقتني .. لا أحس نشوة العيد وأعجب لمن يتحمسون ..

كان في عيني الصديق ابتسامة بلهاء .. ويجيبه هو بابتسامة البلهاء .. ينحني الرأسان ويبتعدان ..

حنينه الى رؤيتها يزداد ، يغطي كل ما أمامه ... لا يرى سوى شوقه اليها ... لا ناس ولا مخازن، لا ابتسامات ذكية أو بلهاء . حنينه اليها يغشى عينيه ويقود قدميه .. لأول مرة منذ أشهر يحس حماسة ورغبة ملحة في التنفيذ . لا يريد أن يفكر فيما ستقول ولا فيما سيجيب . ستراه وتفهم انه مشتاق وان لم تفهم فسيشرح لها حنينه وأشواقه وسيشكو لها عجزه عن السلوان، ويعدها بأنه سيجد عملاً قريباً ، قريباً جداً ، قبل انتهاء هذه السنة ، وسيحتفلان في ليلة السنة الجديدة بالخلاص من البطالة وبالعمل الجديد وبالرجوع اليها ، بالانتصار على الابتسامة البلهاء .

يهرب من بيتها .. ليس في نفسه احتفالات . لا انتصار في ميدان . جثث الموتى تتراكم في ميادينه ، أعماقه جنازة صامتة ووجهه ضحكة بلهاء .

يفتح في البيت الدفتر الصغير ويبدأ الاتصال بالاصدقـــاء والمعارف القدامى والرفـــاق والشركات والمؤسسات . الآلة الصغيرةالسوداء حملت له أصواتاً ودودةومتلهفة وواعدة وتحمّل برضى الأصوات الحاسمة في أجوبة الاعتذار .

حبس نفسه في البيت في الأيام التالية ينتظر أن يرن الهاتف. وحين يطول الانتظار ، يدير هو الأرقام ليسمع الرنين والصوت المجيب الخاذل والواعد ، ويبدأ في نفسه انتظار . مرور الدقائق والساعات يمنيه ويخذله . وتساقط أوراق الروزنامة يرعبـــه ويفرحه . وينتظر الآلة الصغيرة السوداء ، ينتظرها ويخشى أن يحبس نفسه قربها فتعبره صدف قد يلاقيها في الخارج .

ينظر في الصندوق قرب الباب وفيه ما حمل وما لم يحمل ساعي البريد . رؤية ساعي البريد تثير كل الانفعـال في نفسه ولا يستطيـع أن يصدق أن تكون كوم الرسائل كلها للآخرين ، وليس له فيها رسالة واحدة !! يستيقظ في الليـل وفي ساعات النهار على رنين الهاتف ويكذب اذنيه أن لم تسمعاه الرنـــين ويرفـع السماعة . الخط ليس معطلاً .

ويرن الهاتف رنيناً عادياً كباقي المرات في وقت لا يتمـيز بشيء ، ويهب اليه . قلبه يعلمه انه يحمـل خبراً ويسمع صوت صديق . لا يفهم ما يقوله الصديق . وحين ينتهي الحوار يتساءل

هل أراد السؤال عن صحتي فقط ؟ أصحيح انه مشتاق الي ويدعوني الى سهرة السنة الجديدة ؟ أهذا كل شيء ؟ أهذا كل شيء ؟

ويحس بحنين جارف اليها يريد ان يسمع صوتها، ان يسألها كيف هي. لن يرى عينيها الذكيتين ولن يحس اسئلتها الصامتة، ولكنه سيرى ابتسامته هو البلهاء وسيحس أجوبته هو الصامتة. صراعه مع الهاتف وساعي البريد والثواني لا يفوز فيه إلا استمرار الصراع مع نفسه. يريد انتصاراً على نفسه. أي انتصار. على انتظار هاتف، على خيبة من ساعي بريد. على حنينه الجارف اليها. سيذهب إلى سهرة السنة الجديدة يلهو ويعبث ويمرح لا يجيب على اسئلة ولا يجرفه حنين. ولا يرسم ابتسامة بلهاء. وربما قد صادف الصدفة المرتقبة. كل كيانه تنبؤ يحس أنه سيلاقي حظه. حواسه الخمس بل الست تحدثه. سيلاقيه في خبر عابر، في جملة توجه له أو لغيره، في شخص كان قد نسيه ويناضل حنينه الساحق اليها. وينتظر لعلها تكلمه أو لعل غيرها يكلمه، ولكن الآلة السوداء الصغيرة تودع السنة الراحلة بغير نواح ولا تهليل، حزنها صامت عميق.

وفي الحفلة يفاجأ بجموع الراقصين والراقصات والموسيقى الصاخبة والحالمة وصيحات النشوة وحبال الألوان والبالونات المتطايرة. لمعان في الثياب والعيون والاسنان.

يحس كأنه من أهل الكهف بعد مكوثه فيه أكثر من ثلاثة آلاف سنة. تصدم وجهه كرة ملفوفة فينفرش على رأسه

وجسمه حبل ملون . يتفاءل . ستربطه هذه الحفلة بحبل ما .
يخترق حشد المرحين يفتش عن شلة الاصدقاء . يلاقونه
بحفاوة . ويزداد التفاؤل في نفسه . انه محبوب وهو لا يدري ،
تجذبه أيد ، يوضع على رأسه طرطور ، تقدم له كأس يعبها وهو
مستسلم لنشوة المحبة يريد أن يغرق فيها . يستيقظ منها على
كلمة انشائية . يفتش الشفاه . بعضها يقهقه والآخر يهمس
والثالث يحلم ورابع يعب كؤوساً .. وأخيراً وجد شفتين
تتكلمان . كانتا بعيدتين ولكنهما كانتا تتحدثان عن المؤسسة
الانشائية ، إنه متأكد من سماعه هاتين اللفظتين . كاد أن يصرخ
في جموع الراقصين يوقفهم . في الموسيقى ببة ها . في القمقهات
يخبطها . ولكن الشفتين اتجهتا نحوه وحيتاه بترحيب . وانتهى
حديثهما عن المؤسسة الانشائية . قام صاحبها يراقص ذراعين
عاريتين ويهمس في اذن . من المؤكد انه لا يحدثها عن المؤسسة
الانشائية .

وعاد اليه القلق ، كل حديثه لنفسه وايحاءاته الذاتية سحبتها
حبال ملونة مبعثرة وطارت بها بالونات براقة ملونة .

حنينه اليها ينبع . تمنى وجودها يراقصها ويغمرها بذراعيه
ويهمس في أذنها ، يهمس بحديث العودة .. العودة الى المؤسسة
الانشائية .

قام من كرسيه وجلس على كرسي بجوار صاحب الشفتين .

يعود صاحبها يقود حسناءه أمامه يجلسها على الكرسي . تجلس الشفتان الواعدتان على الكرسي التـــالي . يسترق هو السمع . تهمس الشفتان : « ذراعاك دافئتان كالمخمل » . يسحب أذنيه . يمد يده الى الكأس . يلتفت الى جارته يدعوها الى رقصة . يجب ان يقول لها شيئاً ، أن يهمس في أذنها بحديث ، لا يحس ذراعيها دافئتين كالمخمل ولا يسعده احتضانه لها .

في احـــدى الدورات ينظر الى حلقة شلته فيرى الشفتين الواعدتين لا تهمسان في أذن الحسناء . كرسيها فارغ . لا يدري كيف يتخلص من العمود الذي يحتضن . عليـه ان ينتظر إنتهاء قطعة الموسيقى ويمر ألف عام قبل انتهائها. يقود أمامه زميلته. يتمنى دفعهـا ليصل قبلهـــا الى الكرسي الفارغ . تصل اليـه وتجلس . يجلس بجوارهـا ، يجد نفسه يحدثهـــا بصوت عال : « نسيت ان أخبرك اني كنت أعمل في المؤسسة الانشائية قبـل اغلاقها » . وبكل بساطة تتحرك الشفتان الواعدتان : « ستفتح أو اظنها عادت للعمل فعلاً » ، ثم يقوم صاحبهـــا فقد رجعت ذات الذراعـــين الدافئتين كالمخمل . يحتضن تلكما الذراعين ويذهب بهما .

ينفجر في رأسه بركان . الدوي يردد . عـــادت المؤسسة الانشائية للعمل . عادت المؤسسة الانشائية للعمل . لقد صدق حدسه . صحت نبوءته . كان يدري انه سيلاقي قدره المفرح الليلة . الصدفة التي طالما انتظرها تنتظره الليلة .

الساعة الحادية عشرة . الليلة وقبل طلوع صباح السنة

الجديدة سيعود حظه الضائع كله عيناك تبحثان عن صاحب الشفتين الواعدتين . وجده لا يزال يدور محتضنا الذراعين الدافئتين كالمخمل . وتتعلق آماله بلحظة انتهاء قطعة الموسيقي. وتعاود الفرقة عزف قطعة جديدة أشد حماسة وأكثر اثارة . ويحتد الحضور ويتحمسون .. تتطلع عيناه الى صاحب الشفتين الواعدتين . يريد اختراق حلبة الرقص ، سحب صاحبه وسؤاله ان يسرد عليه كل شيء . رمى امامه عبارته العابرة وتركه في جحيم الترقب .

تواصل الفرقة عزف قطع أعنف وأقوى . لن يعود صاحب الشفتين الواعدتين قبل إنتهاء الرقص، ويتطلع الى الساعة الكبيرة المعلقة يصارع معها الزمن ثانية بثانية .

هل يتصل بها تلفونياً ليقول لها .. ماذا يقول ؟ سمع عبارة من شفتين يريدهما واعدتين ، يحس فجأة باستسلام خانق ، وعاد يتطلع الى عقرب الساعة الكبير يريده ان يعبر الثواني .

انطفأ الضوء .. والتقى العقربان . وعلا الهتاف والتهليل والقهقهات وأصوات القبل . عاد الضوء ، رأى أيادي تتصافح ورؤوساً تتقابل وشفاها تتلاقى. يد تمتد اليه وهناك من يقول له سنة سعيدة ، أجاب بابتسامة بلهاء .

استيقظ صباحاً على رنين الهاتف يلح في رنينه، ومن هناك، من بعيد، جاء صوتها ، قالت : مبروك . فسكت . قالت :

كنت أريد أن أكون أول من يهنئك بالعودة الى عملك .

فسكت . قالت : فكرت في الاتصال بك أمس ثم ترددت .

فسكت، قالت : لمَ لم تتصل بي؟ كنت أنتظر صوتك . فسكت. قالت : سنة سعيدة . أجـــاب : لمَ لم تقولي كل هذا في السـنة الماضية ؟

١٩٦٤

الخطوة التالية

عالية ، اكثر فتاة في المدينة شهرة وابنة التاجر الكبير الوجيه ، انتخبت ملكة للجمال . كان هذا هو الخبر الذي تناقلته الألسن وكتبت عنه الصحف صباح اليوم .

ولم نعجب . فقد كنا نحن جميعاً قد توجناها ملكة للجمال والثقافة والظرف والحنان والتواضع...

وماذا أقول بعد في مزايا عالية ؟ فبالاضافة الى كل هـذا، كانت عالية محبة للخير ، مما جعلها مقربة الى قلوبنا نحن ابناء هذه المدينة الفضولية . نعم اعترف اننا هكذا مع ان الفضول من صفات أهل المدن الصغيرة، ولكن يظهر ان نمـو مدينتنا السريع أبقى الصفة الاصلية في سكانها حين لم تك قد بنيت فيها هـذه الجامعة الكبيرة التي استقطبت كثيراً من المفكرين واساتذة وطلاب العلم .

كنا نعرف تاريخ حياة كل شخص يفد الى مدينتنا الصغيرة الكبيرة . لا أدري كيف أفسّر سرعة انتقال هـذه الاخبار ولكنها كانت تصل الينا وننقلها بدورنا الى الآخرين كأنما نقل الاخبار جزء من واجبنا اليومي . ولا أخفي ان التفتيش عن الاخبار كان يسلينا ، نحن ابناء المدينة الأصليين ، فالوافدون مشغولون بمهام الجامعة وجوها الثقافي ، ونحن ، اصحاب

الحوانيت ورواد المقاهي ولاعبي النرد ، ماذا يمكن ان يشغلنا غير الحديث عن الآخرين ؟ ولكن والله لم نكن سيئين، فنحن لا ننقل الاخبار الا كما نسمعها ولا نبالغ فيها . تلك فضيلة يعترف بها حتى الوافدون أنفسهم . نتقصّى الاخبار ونتناقلها ولكننا لا نبالغ فيها ، ولا نشمت ، كنا نطرب سعادة اذا نقلنا أخباراً سارة ونحزن اذا نقلنا خبراً مؤلما .

اليوم كنا فرحين ، فلعالية مكانة في نفوسنا عزيزة . لقد ترعرعت وشبت أمامنا وأحببناها منذ كانت طفلة ونما هـذا الحب ، ونما معه اهتمامنا وتقصينا لاخبارها

اليوم انتخبت عالية ملكة للجمال . وتساءلت عيوننا في صمت : ما الخطوة التالية ؟ متى ستأتي الخطوة التالية ؟ كنا نريد أن نفرح بها، وطالما رشحنا لها أفضل شبان المدينة من سكانها الاصليين والوافـــدين . ولكن ترشيحاتنا ورغباتنا لم تلاق صداها في غير أحاديثنا الخاصة .

فكرنا كثيراً في كيفية نقل تخطيطنا لمستقبلها اليها ؟ وماذا يكون وقعه لو سمعت به؟أتدري انه حب لا فضول ؟ انه اهتمام ولهفة لا ازعاج واقلاق ؟

وجاءني يوما قائل والقلق يعلو وجهه وطلب ان يحادثني على انفراد . لقد سمع من مصدر موثوق به ان عالية استشارت بصارة المدينةو... أحسست غضب الدنيا كله يتجمّع في رأسي ولكني لم أصفع القائل خوف ان تضجّ ثورتي بأقاويـل أنزه

عالية عنها . لم أرد أن أسمع ولا أن أصغي ولا أن أصدق . كان في عيني القائل حديث هززت رأسي لا أريد حتى الشك بامكانية وجوده وصرخت : لا .. لا .. عالية العالية تحب من لا يحبها !! الايام نفسها لا تجرؤ أن تلجئها الى السحر لتحب. انها معبودة والكل يتمنى لو تطلعت اليهم .

وبعد فترة ظهر لنا ان الخبر صحيح، وان عالية تلجأ حقيقة الى بصارة تستعين بالسحر لتقرب بين القلوب . قتلنا الفضول ونحن سكوت . من نسأل ؟ وكيف نتأكد من صحة هـــذه الأخبار ؟ من هذا الذي تحاول عالية استطلاع عواطفه نحوها . كنا مستعدين لقتله ان كان .. ولكن عالية تحبه وعلينا ان نحبه اكراماً لها .

لم يبق امامنا الا ان نذهب الى البصارة نتوسل اليها ان تخبرنا اليقين . لتساعدنا ، لتساعد عاليتنا وتوقف فضولنا القتال.

تمنعت البصارة ، فأسرار المهنة لا يمكن افشاؤها ورأينا في عينيها رغبتين قويتين تتصارعان ، فهي تريد الكتمان بكل قوة وتريد البوح بكل قوة أيضاً .

تغلب اخيراً طبع المدينة الاصلي على الواجب فباحت لنا بالحقائق وتطلعنا الى بعضنا في غباء :

ما معنى ان تستعين عالية بالسحر ليجعلها قادرة على الحب؟

١٩٦٧

الجُذور

طلعت علينا الصحف بأخبار القتال في فيتنام ، وكعادتنا كان علينا أن نخبىء الصحف عن عمتي حين يكون فيها حديث حرب ونزعم ان المذياع معطل . كنا نقوم بهذا العمل بصورة آلية لأنه أصبح جزءاً من منهاج حياتنا . فان مجرد ذكر كلمة حرب كان يكفي لتعكير مزاج عمتي ويتعكر بالتالي جو البيت. أما إذا أظهرنا أية شكوى من هذا الجو المشحون بالقلق فإن عمتي تعود إلى تكرار قولها الذي سمعناه منها عشرات وعشرات المرات : « انتم أبناء هذا الجيل لم تمروا على حرب ، ولكن آثارها واضحة عليكم تعيش فيكم وتعيشونها دون أن تحسوها ». وكنا في كل مرة نطلب منها أن تكف عن حديث الحرب ، فاذا كنا محظوظين بحيث لم نتعرف عليها ، فهل نلزم بالتذكير أن حرباً قد تركت آثارها في حياتنا ، وعلى معيشتنا ؟

اليوم أحسست بتعب مسبق مما ستردده عمتي . لقد حفظته عن ظهر قلب وتمنيت لو قالت أي شيء ، أي شيء آخر ، ولو كان أكثر مرارة وأكثر ألماً .

كان لعمتي حس مرهف في التقاط الأخبار . أدارت بصرها

حولنا وقالت : شبح حرب جديدة ؟ فلزمنا الصمت وتطوع أبي بتهدئة الجو ، فتحدث عن مبالغات الصحف التي تستغل الأخبار الصغيرة وتجعل منها مادة مثيرة تجذب أكبر عدد من القراء ... وتركت أنا البيت ورغبة في عدم العودة اليه تلح عليّ . ولكننا كنا معتادين أن نجتمع على مائدة الأكل في الأوقات الثلاثة .. بل الأربعة ، فهناك شاي العصر .. وتمنيت لو ثرت على كل شيء ، على نظامنا الدقيق في مواعيد الأكل ، على شدة الاحترام لقيم أراها بليت ، على قوة الترابط بين أفراد الأسرة إذ يعيش الواحد منا للكل عدا نفسه .

تمنيت ألا أعود إلى البيت . أن أبيت خارجه وليقلق أهلي. ليسألوا ويفتشوا عني . لتكن هناك فضيحة كما يسمون أي خروج بسيط على القواعد التي خنقونا بها . أريدهم أن يفهموا اني بلغت سن الرشد واني سيدة نفسي لا أسيرة عواطفهم .

بدأت مرحلة الدراسة الجامعية هذه السنة ، وسأتولى تربية نشء بعد بضع سنوات ، ولا تزال اسرتي تريد أن تتحمل مسؤولياتي الصغيرة والكبيرة. لا أدري متى سأنضج في عرفهم. متى سأكون في الوقت والعمر المناسبين . يقولون أحياناً : انك بعد صغيرة والمستقبل أمامك طويل . وفي أحايين أخرى ، يقولون : لقد كبرت عن هذه الصغائر ، أتركيها للاطفال . أنا دائماً أكبر من الأحداث أو أصغر منها. فمتى يكون الوقت المناسب؟ متى يكون متى ؟

كنت في بعض الأيام اضطر للغداء في مطعم الجامعة وعليّ

حينذاك أن أخبر أسرتي صباحاً ثم اتصل بهم لتأكيد حاجتي إلى التغيب ظهراً . لن أتصل بهم اليوم . انهم دائماً قلقون . ان عدت مبكرة أو متأخرة سألوني : أين كنت ؟ لم تأخرت ؟ شغلت افكارنا عليك . فليقلقوا اليوم لسبب ما داموا قلقين دائماً لغير ما سبب .

وقفت على الباب في الصف الطويل المنتظر من الطالبات والطلاب ، وكنا نتقدم ببطء شديد نحو كومة الصواني .

تعبت عيناي وأنا أراقب الطلاب واحداً بعد الآخر يأخذون صوانيهم ويضعون عليها ما يختارون من صحون الأكل ثم يصلون إلى مكان الملاعق والشوك والسكاكين ، فيأخذون نصيبهم وأخيراً يدفعون لمكان الحساب ما عليهم ويحملون أثقالهم يدورون ، يفتشون عن كرسي فارغ أو قسم فارغ من طاولة .. وفجأة وجدت نفسي أمام كوم الصواني ، وفجأة كذلك وجدت نفسي أعود القهقرى وأنا أحدق بكل انتصار في نظرات الفضوليين والمستغربين .

كان الحس بالانتصار لا يزال يسعدني وأنا أقرأ قائمة الطعام في المطعم الجديد الفخم الذي اخترته . لا أدري كيف واتتني الشجاعة على دخوله بمفردي ، وكيف سرت بين الطاولات يقودني النادل واجيبه فخورة انني وحدي حين سألني عن عدد الاشخاص الذين سأكون معهم . كنت لا أزال أحس بالانتصار لكل البطولات التي قمت بها حين لاحظت أن النادل ينتظر مني اختيار صحن فأشرت مسرعة إلى أغلى صحن وجدته .

أخرجت المرآة الصغيرة من حقيبتي وتأملت وجهي أحاول اصلاح ما يحتاج منه إلى اصلاحوأنا أفكر في الشعوب التي تكافح لنيل استقلالها .

سمعت همساً . همساً يأتيني من مائدة خلفي . كان رجل يقول : لا طعم يوازي طعم الدجاج البلدي ، أما هذا المفقس اصطناعياً وليد الماكينات فلا نكهة له . مرت فترة قصيرة ثم عاد الهمس . كان همساً انثوياً : أتدري لماذا ؟ لأن الدجاج البلدي حصيلة الحنان. تدفىء الأم البيض اربعين يوماً ثم تستقبل صغارها إذ يخرجون بجناحين مفتوحتين ، وحين تحك ريشهم بمنقارها تشبعهم .. محبة .. لحياتهم طعم لذلك ، صار لهم نكهة وطعم . أما الدجاج المفقس اصطناعياً .. وعلت قهقهة من الرجل تقاطع ، ثم يهمس : أنا أدرى الناس بطعم المحبة والحنان ولذلك سنتزوج يا عزيزتي ، فاطمئني .

كانت الساعة الواحد والنصف ، ولديّ وقت قبل بدء صفوف بعد الظهر ، فقصدت معلمة البيان الأجنبية التي اعتادت أن تعطيني درس العزف في البيت . فكرت اليوم في الذهاب إلى بيتها وأخذ الدروس عندها .

وتأملتني السيدة المسنة طويلاً . لم أفهم شيئاً من نظراتها . قلت لها اني فكرت ان أغير برنامجي ، وأتلقى الدرس في بيتها على سبيل التغيير . سألتني : ما الذي جعلك تغيرين منهاجك ؟

أجبتها : لقد تناولت غدائي في مطعم فاخر ولم أخبر أهلي عن تأخري وطلبت أغلى صحن في قاعة الطعام و ...

فقاطعتني : هل كان أغلى صحن أطيب مذاقـــاً من أكل البيت ؟

فلم أستطع الاجابة على هذا السؤال .

فتحت لي معلمتي البيان ودعتني إلى الدرس . فلم أجد نفسي راغبة فيه . كنت أريد ان أتحدث عن بطـولاتي وانتصاري في هذا اليوم. وكانت معلمتي لا تزال تنتظرني فوقفت ، وبدل التوجه إلى البيان قمت أتجول في انحاء البيت الصغير . كان كل شيء فيه نظيفاً مرتباً منضداً .

عدت الى الجلوس واسترخيت وقلت: لم أجد صور اشخاص على جدران بيتك وانا أغبطك .. فلم تجبني . اردفت : الجلوس على هــذا الكرسي مريح . عادت نظراتها غير الواضحة تحدق بي وتسألني : أتريدين حقاً تلقي دروسك في العزف ؟ فأجبتها رأساً: لا .. لا أريد ،أريد التمتع بجو الاستقلال الذي تعيشينه ، ليتني أغمض عينيّ وأفتحهما فأرى نفسي في بلد بعيد جديد لا أعرف فيه احــدا . ابدأ الحياة ولا قرابة دم أو عاطفة تربطني بأحــد . تطلعت اليها بزهو أفتش عن صدى لكلامي ، فرأيت نظراتها غير الواضحة تتحول الى صرامة وقوة وتـــقدمت مني وأمسـكت بكتفي وقــالت : كنت في مثــل سنك يا صغيرتي عندما أحسست ان حب عائلتي يكبلني ، فقررت ان استقل بشخصيتي ورأيي ، فكسرت القيود وخرجت من سجن المحبة ، وتركت البيت . ثم .. ثم تركت الوطن واقتلعت جذوري من أرضها . حملتها ودرت بها ودرت .. وتعبت كتفاي من حملها

فحاولت زرعها ولكن المناخات الجديدة لم توافقها ، فرجعت أحملها الى تربتها الاصلية . ولكني اكتشفت اني تأخرت وان جذوري جفت ولم تعد صالحة للزرع . وهأنا كما ترينني أعيش بلا جذور . عودي ياصغيرتي الى البيت ، وقبلي كل صورة على الجدران هناك . صور الاحياء والاموات ، فكل صورة منها ترعاك بطريقتها الخاصة . درسك ليس موعده اليوم ولا مكانه هنا .

لم تكن كتفاي متعبتين حين خرجت لا تسكع فترة قبل الذهاب الى الجامعة لسماع القسم الباقي من المحاضرة .

كان استاذنا يحاضر عن العرف والتقاليد وتغييرها بالنسبة الى مقاييس المجتمع ونظرة الفرد اليها ، وأخذ مثلا من حياة الفنان الذي لايلتزم هذه المقاييس ولا يتقيد بها لأن الارتباطات العائلية والعاطفية التي تصح عند الناس هي قيد كبير له مهما بدت صغيرة . فهو يهب حياته للفن الذي يحول دون وفائه لارتباطات عاطفية عابرة .

خرجت من المحاضرة وانا اتساءل : هل يتعارض الطموح مع الوفاء ؟ وما معنى العواطف العابرة . لا أدري في اي قسم من الشارع كنت حين سمعت باعة الصحف ينادون : شبح حرب جديدة . تمثلت لي عينا عمي تحملان رعبا يترقب . تطلعت الى المارة . لم يكن احد منهم ينظر الي او يأبه لوجودي . منهم المسرع والمتباطىء والوحيد او مع رفيق . لم يبد على احد منهم انه قلق او انه متعب او انه يحس بزهو وانتصار .

وفتشت في نفسي عن الزهو، وعن الرضا، وعن الانتصار، فلم أجد شيئا منها بل وجدتني في حاجة الى البكاء .

وعـــاد صوت الباعة ينادي (اخبار القتال في فيتنام) . وعادت عينا عمتي تتمثلان لي، فقررت ان أعود الى البيت .. ان أفتح الموضوع مع عمتي مباشرة .. ان أفجر الحـــديث الذي ينخر في أعماقي دون ، جرأة على الافصاح .

وجـــدت عمتي تحوك قطعة صوفية وفي جلستها ترقب مستسلم. تطلعت الي بتساؤل خجل، شجعتها باطالة التحديق اليها، ثم سألتها وبدون مقدمات : ما الذي يرعبك من الحرب يا عمتي ؟ وأخذت هي بسؤالي الصريح غير المنتظر ، فأضفت : لا تعيدي علي ما سبق وسمعته منك مراراً . أريد تفسيراً جديداً ، أريد حديثاً جديداً — اريد ..

فرفعت يدها تسكتني وسحبت اليها كرسيا وطلبت الي الجلوس. قالت : سأحدثك عن.. عن صديقة وما جرى لها بسبب الحرب واحكمي بعد ذلك على كراهيتي للحروب ..

ووضعت عمتي القطعة الصوفية جانباً وأكملت .. كانت صديقتي غنية مترفعة اعتزت بمكانة أسرتها ، فرفضت كل من تقدم يطلب يدها .. ثم .. جاءت الحرب، نسيت ان أخبرك ان بيت صديقتي كان يعج بالخدم وكان بينهم سائق للسيارة . أقول ان صديقتي رفضت عـــدداً كبيراً من الخاطبين .. كانت تريـــد رجلا يوازي بثروته مكانة أبيها . ومرت الايام وجاءت الحرب. أظنني ذكرت هـــذا ولكن لا بأس من ذكره ثانية ، فكل

القصة حدثت بسبب الحرب .

شبت الحرب وتبدلت الحياة فارتفع أناس وأثروا وأصبحوا وجهاء يشار اليهم بالبنان ، وكان من بين هؤلاء سائق السيارة، لقد أصبح احد اثرياء المدينة المعدودين، اما هي صديقتي ،فكانت قد بلغت سناً ليست من الشباب في شيء ومات أبوها وماتت أمها ولم تعد تحس بالاعتزاز الذي كانت تحسه في بيت أبيها . لا أدري لم أحاول ان أجد تبريراً للأمور . ولكن الذي حصل ان سائق السيارة طلب يد صديقتي فقبلت به .

قلت لعمتي : أني لا أجد في هذه القصة أية اساءة للحرب.. فأجابت : دعيني أكمل الحديث .. أغرقها السائق بالمجوهرات والحفلات والولائم ودعا الى يوم الزفاف كل وجهاء البلد، وتحدث المجتمع عن حفلة الزفاف المنتظرة، وفي ليلة الزفاف .. في ليلة الزفاف ..

مدت عمتي يدها الى القطعة الصوفية وبدأت تحوك خيوطها بعصبية غريبة: أتدرين ما الذي حدث في ليلة الزفاف؟ جاء كل المدعوين وانتظرت العروس وبدلاً من مجيء العريس ، أرسل كتاباً يقول فيه : أنه يريد الانتقام لأنها كانت لا تكترث بعواطفه حين كان سائقاً لسيارة أبيها ، وكانت تذله بعدم الاكتراث ذاك .

لم ترفع عمتي عينيها إليّ، ولكني رأيت الدموع تتساقط على يديها وهما تحوكان الخيوط الصوفية بعصبية شديدة . لم أدر ما يجب قوله أو عمله فسكت وأنا أتابع الدموع تنفرش على يديها

وتسيل وتصل إلى الرسغ ... وكم أحسست بالغبطة وأنا اصرخ بفرح :

انها الساعة الخامسة ، هذا موعد شاي العصر ...

١٩٦٤

فترة الغروب

جاء الليل مرة اخرى او سيجيء ، فالآن وقت الغروب، الفترة الـتي تخشى مجيئها كل ظهر . وتفكر بها صباح كل يوم .

تقول : اذا مرت فترة الغروب، اذا استطاعت تحملها ، ان ترى الشمس تنخفض وتنخفض ثم تهبط فجأة وتختفي ، اذا لم تلاحظ هذا أو اذا كانت أكثر حظاً وصادف وجودهـا داخل أربعة جدران وسقف ، فأن فترة الغروب ستمضي وتنسى انها عبرتها ولكن .. ولكن الليل طويل ، اذا بـدأ فمتى ينتهي ؟

بدأ الليل .. أحست بعتمته فجأة . كانت تراقب الأفق من الشرفة وهي تردد أمنيتها همساً : تهمس بها لنفسها أو للشمس أو لله ... لا تدري لمن .. تفعل هـــذا لعل تلفظها يصادف لحظة هبوط الشمس فتتحقق الأمنية .

هي لا تؤمن بالاساطير . تهزأ من كلمات حظ وصدف وقدر وتسميها خرافات ، ولكنها ترددها وتتبع تعليماتها وتلجأ اليها .

اذا رمشت العين اليسرى فستسمع خبراً ساراً والعكس مع العين اليمنى . اذا طنت أذنها فهناك من يتذكرها،من يفكر بها. ويشغلها الطنين: تريد ان يكون المتذكر من تذكر هي، ثم تتعب

من الوهم . عاشت عليه فترة ، أسعدها لمرحلة قبل ان تكتشف أنها كانت توهم نفسها بتلك الأوهام .. والآن وقـــد جاء الليل الطويل ، استيقظت الاشياء. أطلت الحقيقة مترقبة اشارة خديعة صغيرة لتصفعها . كم سلمت خد ايامها للحقائق تصفعها الصفعة تلو الصفعة ، وتلقت تلك الضربات والصفعات وكأنها تنتظرها. فهي مهما طالت ومهما كثرت وتعددت ستنتهي ، ستقف عند حد، لا بد للاشياء من الوقوف . لا يمكن لها الاستمرار في السير .

كان هذا ما تردده دائماً كلما أحست بتعب جديد . أعادت هذا الحديث لأبيها اليوم حين سألها (لم تبدين شاحبة ؟) أصغى اليها وتوقف فترة قبـل أن يعلق : ما معنى ان تنتهي الاشياء ؟ وان تقف ؟ تطلعت اليه ، الى شعره الأشيب، والى الغضون العميقة في وجهه ، وخافت أن تنظر الى عينيه الذابلتين . أجابت مسرعة :

– كم يتعبني العمل الروتيني . أتمنى لو أبقى اياماً في البيت أو أتجول في الشوارع دون ان احمل ساعة . ان لا ينتظرني شيء ولا أنتظر شيئاً ..

قاطعها أبوها: أصعب ما في الحياة ان لا يكون فيها انتظار ..

ثم أردف : أو ان يكون فيها انتظار .

وراعتها هذه الحقيقة الاخرى فصمتت لئلا تأتيه بحقيقة ثالثة .

كان الحر شديداً مساء تلك الليلة. لم تستطع البقاء في غرفتها. كانت تتمنى لو امكنها الاسترخاء على الفراش وتأمل السقف، هذا كل ما تطلبه الآن . ولكن الحر شديد والمروحة الكهربائية

معطلة ، والمصلح كاذب يماطل في مواعيده ، وغرفتها شـديـدة الحرارة ، وهي تريد الاسترخاء على الفراش والتطلع الى السقف ولا تستطيع. كم تكره المصلح وكم تكره الحر وكم تكره الكذابين!

شرف الجيران تطل قريبة على شرفة بيتها الكبيرة، ويغبطها الاصدقاء على وجودها ، وهم لا يدرون انها لا تستطيع الاستمتاع بها . فضول الجيران وأصوات المذياع والتلفزيون من هنا وهناك اضافة إلى حوار الشرفات يزيد الحرارة . فأين تذهب وكيف تتخلص من هذا الألف شيء وشيء الذي يجيش في نفسها ؟

في الصباح أحست بغربـة شديدة . لأول مرة تحس انهـا غريبة .

لعل شدة الحرارة ذكرتها بحرارة الجو في بلادها . هناك في بيتها كانت مئة وسيلة للتخلص منه أو لتخفيفه على الأقـل ، وهنا لا سبيل لها غير الشكوى ، ويعجب السامعـون : أهي تشكو حرارة الجو وقد جاءت من بلد معروفة شدة حرارته ؟ كانت في أول الأمر تعدد أساليب التبريد ونوعية البيوت هناك، ثم تعبت من الترديد واكتفت بالشكوى ، ثم تعبت من الشكوى واكتفت بالصمت المتعب .

تذكرت اليوم بيتها هناك، في بغداد، وتصورت نفسها صغيرة تمسك بخرطوم الماء القوي ترش الحديقة وتغافل شقيقاتها ببعض الماء وهي تدري انها ما ان تفلت الخرطوم وتركض حتى يلاحقها الرذاذ فترتمي على الحشيش الاخضر الفسيح ويزداد انصباب الماء. وبين الضحكات المستغيثة الفرحة تسمع صوت امها يحذرهن من

الماء ومن الشمس ومن كـثرة اللعب والضحك ! مـاذا بقي من تلك المحذرات غير الشمس الحارقة ؟ امتلأت عيناها بالدموع ، فأسرعت تكمل الاستعداد للذهاب إلى العمل .. إلى الروتين .

وقفت مع جموع المنتظرين . السيارات قليلة في هذه الساعة من الصباح . في بلدها حـين كانت صغيرة كان بيتها قريبـاً من المدرسة ، وحين كبرت و كبر اخوها واخواتها انتقلوا إلى بيت قريب من الجامعة . كيف كانت الأشياء قريبـة وفي متناول يدها ؟

جموع الناس تزداد حولها وعدد السيارات يقل والوقت يمر سريعاً . وجدت نفسها تضحك لنظرات الانتصار في عيون الراكبين. لم تخرج المرآة تنظر إلى عينيها بعد أن حشرت نفسها في احدى السيارات المكدسة برائحة العرق البشري. انها تنتظر أن يمر هو بها صدفة بسيارته الكبيرة المريحة ويحملها معه . في الطريق لا يتعاتبان ثم يتصالحان . تكررت اليوم خيبـة الأمل اليومية . ومرت أمامها صورة صديقة لها رأتها كما رأتها في ذاك اليوم تشد شعر رأسها وتبكي وتصرخ وتستغيث وتطلب من كل الاصدقاء أن يبحثوا لها عن حبيبها ويجلبوه لهـا . أن يشقوا الأرض ويأتوا به . أن يطلبـوا من الشرطة ايقـافه عند أية حدود يحاول اجتيازها بحجـة انه سارق ، بحجة انه قاتـل ، بأية حجة كانت ... المهم ان يبقوه لتراه وتحدثه وتتوسل اليه أن يعود اليها . لا .. لا تريد الاسترسال في التذكر . هل ينزل الحب بالناس إلى هذه المذلة ؟

لم يكن في نفسها شهوة للعمل ، ولكنهـــا عملت وبنشاط وحماسة ، وفي نصف الساعة الأخيرة من الدوام لم تستطع انجاز شيء مع كل ما تناولت من مرطبات ومنعشات . ومـــع كل ما قالته لنفسها . عصتها يداها وعصاها تفكيرهـــا .. وصلت جريدة الظهر فتمنت لو تجد فيها خبراً مفرحاً يهزها . خـــبراً كبيراً يشير الدنيـــا لعلهـــا تتحرك ويتحرك معها النـــاس يذهبون إلى الشوارع يرقصون ، ويمرحون ويرددون الاهازيـــج ويحملون الشعارات يشتركون في الهدف الواحد الكبير .

ولكن حروف العناوين الكبيرة في الصحيفة ذبحتها ، كل ما يهم المحررين محليـــات ضيقة صغيرة . لا تدري من تلوم ومن هو المسؤول ؟ أهم الناس ؟ الافراد وحـــدهم هم المسؤولون والملومون والجديرون بالعتاب ؟ أم هو القـــدر والظروف ؟ وفشلنا الذي يجب أن نواجه ؟ هل نستطيـــع مناقشته ؟ هل نسأله لماذا نجـــح وانتصر ؟ النجاح !! والانتصار !!

صديقتها التي أذلها الحب تعيش في بيت سعيـــد مع حبيبها وطفليها . كم تحتاج صوت أمها يحذرها . حديقـــة بيتها بيعت . من يفترش المرج الأخضر الفسيح ؟ ليت أحداً هنـــاك يرش الحشيش والزهور حول أمها ..

ستجد المروحة لا تزال معطلة والحر قد أشتد عن الأمس . صوت مذياع الجيران يعلو على أصواتها واصواتهم تعلو أحيانـــاً عليه ... لا لن تروي لأبيها حقائق جديدة مرعبـــة . سيأتي الغروب وإذا مر فبعده الليل الطويل الطويل . ولـــن تحمل

صحف الصباح أخباراً يرقص لها الناس طرباً في الشوارع ويزغردون .

سمعت صوت عصا تتعثر ودخل غرفتها شحاذ أعمى، أدخله الحاجب، فأشارت اليه انها غير موجودة، ولم ير الشحاذ ولم يسمع، فبدأ يشرح حاجته وضائقته . تريد أن تصرخ فيه وتطرده ، انها ليست ملجأ لذوي العاهات ولا المكان هنا دار للعجزة . نهضت وتركت الغرفة ، فسمعت صوت الشحاذ الأعمى ينادي : يا ست يا ست لم لا تجيبين ؟ تسمرت في مكانها وأصغت ولكنها لم تتحرك . أيقنت انه لم يبق للرحمة مكان في نفسها .

انحشرت في سيارة العودة ظهراً ورائحة العرق البشري قد اشتدت . جارتها في السيارة لا تريد فتح النافذة خوف أن يتطاير شعرها المصفف . شكا السائق من كثرة مراقبة الشرطة وتزايد عدد سيارات الأجرة . أصبح السائق يعطي الشرطي أكثر من نصف أتعابه ثمن مخالفات . بدأت الشكاوى تتوالى من الركاب وتطوعوا لمشاركة السائق وجدانياً وعرض همومهم . وفجأة ارتفع صوت رفيع صدر من صاحبة الشعر المصفف التي تخاف عليه من الهواء قالت : « من لا تعجبه الحياة فلينتحر ! »

أدار الركاب رؤوسهم نحوها . تأملوها وعادوا الى وضعهم الطبيعي . سكتوا كأنهم خجلوا من تعاستهم الجبانة .

في البيت وجدت المروحة مصلحة . أغلقت النافذة تنفصل عن الجيران . بدأت عينها اليسرى ترمش. ستنام الآن . وحين تصحو .. يكون قد بدأ الغروب ، وإذا عبر فستأتي عتمة الليل

الطويله . مع كل عتمـــة الشحاذ الأعمى فانه لم ينتحر . سمعته ينادي : « يا ست يا ست لم لا تجيبين » ؟ فاستحت إذ خافت أن لا يكون قد بقي للمحبة مكان في نفسهـــا . (صاحبة الشعر المصفف لا تريد الانتحار) وهي ا .. هي ستنام وتصحو .. ربما بعد الغروب ، ربما على طنين اذن ، وربما .. ربما على خبر .

صيف ١٩٦٦

ملتقى النهرين

كانت يد « انتصار » تمسك مقود السيارة بقوة الرجـال .
قلت لها ذلك وأنا أعلق على قولها « ان لم يكن ذا حس وطني نضالي فلا يمكن أن أفكر بالعيش معه » لم أجد غير هذا أقوله في تلك اللحظة .

أنا أدري أنّ ما قلته ليس رداً ولا تعليقاً على كلامها، ولكن لأنني كنت مؤمنة تماماً بما تقوله ، ولأنني ظننت اني لا أريـد تشجيعها على الايمان به قلت لها ما قلت .

لم تجبني « انتصار » كنت أجلس على المقعـد الخلفي من السيـارة وبجواري « يسرى » سارحة في المـاضي الحاضر أو الحاضر الماضي ، فالأزمنة مختلطة دائماً في ذهنها. أما « ناهدة » الجالسة بجوارها فكانت ترخي رأسها على ظهر المقعـد وتغمض عينيها المحملتين بالكحل الكثيف .

فتحت عينيها فجأة كأنما أحست بنظراتي تغبطها وتثاءبت ببطء ثم عادت تغمضها وهي تتمتم :
– أنا لا أفهم القضايا السياسية ولا أريد أن أفهم عنها شيئاً. يقولون إن هناك أحزاباً ، ولكني لا أعرف حتى اسماءها .

فأجابت أخت انتصار الجالسة بجوارها :

– أنا مثلك .

كنت أدري ان الأخت تكذب فأجبت :

– الذكية الوحيدة في هذه السيارة هي ناهدة . فمن يعرف الحقيقة عن الأحزاب حتى في أسمائها ؟

لم تفكر « ناهدة » بالتعليق بل تثاءبت ثانية وفتحت عيناً واحدة حكت جفنها الأعلى باحتراس شديد لئلا ينزاح خيط الكحل عن مكانه . وعدت أتأمل عينيها وكحلها ووجدت « يسرى » تتفرس في بعينين صامدتين لجبال الهموم وقالت بصراحة :

– انتصار انسانة جيدة لا يصح ان تتزوج إلا انساناً جيداً .

لكزتها بكوعي فسكتت . أدارت أخت انتصار مفتاح المذياع ، جالت به على المحطات ، وحين لم تجد أغنية عربية اسكتته ، وإذ بناهد تسأل وعيناها المكحلتان لا تزالان مغمضتين :

– أنا أحب الجيتار ، عودي بنا الى المحطة التي كانت تعزفه !

قلت :

– الجيتار لا يبكي أحداً منا ، فلم نستمع اليه ؟

أوقفت انتصار السيارة والتفت الكل صوبي حتى ناهدة فتحت عينيها . أجبتهن قبل أن يسألنني :

– نعم كلنا نريد أن نبكي .

فلزمن الصمت . أضفت :

– إذن فلأكن أكثر جرأة منكن . أنا أحتاج البكاء . أحتاجه ما دمت لا أستطيع امتلاك قنبلة ذرية ، ولا أستطيع تغيير مجرى التاريخ ، ولا أستطيع استبدال ما في نفسي .

كانت السيارة التي أمامنا قد وقفت ونزل منها الرجال الثلاثة . « روني » صديق ناهدة وصديق له قصير القامة والثالث المرشح للزواج بصديقتنا انتصار . كان الأخير طويلاً أنيقاً وسيماً مؤدب التصرفات . أحنى رأسه تحية لنا . كان يفعل هذا كلما وقفت السيارة ونزل منها الرجال الثلاثة قبل مواصلة الطريق الى دعوة الغداء التي ستقام في مقهى « ملتقى النهرين » والتي سيتعارف فيها انتصار والمرشح للزواج بها . .

أحنت صديقتنا رأسها رداً لتحيته ، وكنت أتمنى لو أرى وجهها وما يرتسم عليه : أهو حيرة أم استكانة ؟ انها حالياً راضخة لنصائحنا الملحة بألا تسرع في الرفض وأن تدرس الرجل جيداً ، وألا تضع الحس النضالي العقائدي مقياساً لجودة الرجال ، وان تفكر بأن الزواج غير العمل الحزبي والسياسي وان الاستقرار مع زوج يلتزم بواجباته البيتية أفضل من مناضل يتعرض كل يوم للتشريد والسجن . كنت أقول لها هذا بصورة آلية بعد أن أمضيت نهارا كاملاً أمرّن لساني على عبارات مؤثرة قد تجد استجابة عندها . نظرت اليّ أخت انتصار نظرة امتنان وقالت :

–أقسم بالله ان لا أحد يدرك أمور الحياة ادرا كاً جيداً غيرك .

ولكن محاضرتي ونصائحي وحكمي ذهبت كلها هباء حين علقت يسرى :

– لو كانت الواعظة تؤمن بصحة كلامها ...

لكزتها بكوعي ، فصاحت بأعلى صوت يمكن أن يصدر عنها :

– لن أسكت . . لن أسكت ولا أريدك أن تكذبي على نفسك .

سألت أخت انتصار أن تفتش لنا عن أغنية عربية فأدارت مفتاح المذياع واختلطت أصواته المتباينة مع صوت يسرى ثم علت قهقهة أخت انتصار :

– « كل الاذاعات متآمرة عليك ومتحالفة على عدم ابكائك » .

وقفت سيارتنا نتيجة لوقوف السيارة التي أمامنا ونزل منها روني وجاء صوبنا متأملاً وجه ناهدة النائم ثم تبسم . كانت أسنانه بشعة وتجاعيد عوجاء ترتسم حول عينيه وشعر رأسه يحتاج الى جز عميق . فتح باب السيارة فاستيقظت ناهدة ونهضت وخرجت تمشي كالمنوم تنويماً مغناطيسياً تمسك بيد روني المحتاجة الى حمام عربي .

كانت المناظر حولنا متعبة بالجمال ، وكل واحدة منا تجلس في السيارة وهي ليست فيها . أغمضت عيني واتكأت على ظهر المقعد .

قالت يسرى :

– لن تفتحي عينيك على يد تمسك بك تقودك . .

أردفت أخت انتصار :

– الا اذا كانت يد عروبي يمسك قضية باليد الأخرى !

ثم صمتت فجأة . فتبسمت وأدركت انها اكتشفت متأخرة انها قالت أكثر مما يجب ، وسمعت صوت انتصار يقول :

– أكملي يا أختي ، لا تظنيني مغفلة الى هذا الحد .

وإذ يسرى تقول لانتصار :

– اذهبي . . اذهبي اليه واخبريه انك تحبينه ، وان قربه منك لا يتعارض وخدمة القضية ، وانه لن يستطيع تحمل أعبائها إلا اذا كان مسنوداً عاطفياً . هذا القلق الوجداني يعرقل كل شيء ويجعل الحياة جبل هموم .

لم أصدق أذني . . يسرى الصلدة – المتماسكة – التي لا تعترف بالعواطف ولا تؤمن إلا بوجود قضية يحلها العقل تقول هذا ؟!

قلت لها : أنت ! أنت !!! تقولين هذا ؟؟

أجابت : نعم أنا التي أقوله . . لا لأني مؤمنة بالعواطف مثل إيمانكن بها ولكن لأني أدري تماماً ان القضية لا تخدم إلا في جو نفسي مطمئن ومستقر .

كانت انتصار ساكتة طوال فترة نقاشنا ، وإذا بها تقاطعنا وهي سارحة :

– أترضين لي يا يسرى ان أذل نفسي وأهين كبريائي ؟ لم لا يخطو هو هذه الخطوة ؟

أجابت يسرى : لا كرامة في موضوع العواطف ، لأن البادىء في المصالحة هو صاحب الفضل ، وما فائدة أن يحتفظ الفرد بكبريائه وهو تعس غريب ؟؟

عادت انتصار تواصل حديث أحلامها :

– قرأت في الصحف اعلاناً يطلبون فيه مدرسات لبلد من بلدان شمال افريقيا . سأذهب الى هناك وأبدأ حياتي بمفهومات جديدة .

أجبتها :

– لن يتغير عليك شيء ، فتلك أيضاً بلاد عربية .

عادت ناهـدة وقـد تشابكت ذراعهـا بذراع روني ... وعادت السيارتان للسير بمحـاذاة النهر في طريقها الى « ملتقى النهرين » .

لزمنا كلنا الصمت وكذلك فعل المذياع ، وأصغيت للصمت .. كان ممزوجاً بصوت محرك السيارة . مررنا على أراض مرتفعة فعلا هدير المياه منصباً بقوة ثم انبسطت الأرض فلم أسمع خرير الانسياب . وبين سماعي للهدير وأملي بأن أسمع الخرير وجدت اننا وقفنا والكل ينزل وأنا معهم .

كنت ألتقي بالمرشح للزواج بانتصار للمرة الأولى ، وفهمت من الأحاديث انه تاجر ، ولكن لم أعرف تماماً حقل تجارته . كان متحمساً للقضايا السياسية بانعكاساتها على الحالة الاقتصادية ، ويحمل أهـــل السياسة والعقائديين والأحزاب أسباب تدهور الوضع المالي ويعتب على من يعيب على التجار ماديتهم وهم عرق الحياة الحساس ، على حد تعبيره ، ويقهقه وهو يقول : « مـــا رأيكم بالمرأة التي تهتم بالسياسة ؟ أليس خيراً لها أن تهتم برجلها ؟ يجب ان يكون هو عالمها . وقضيتها الوطنية هي التفتيش عنه .

ما نفع نضالها الخارجي اذا كانت حياتها الخاصة فارغة ؟ عملها الوطني لا يملأ هذا الفراغ مهما كانت ملتزمة » .

لم أعجب لأحاديث التاجر ، فقد سبق وسمعتها من كثيرين، ولكن الذي أثار تعجبي وتساؤلي ودهشتي ورود ، امكانية عقد زواج بين انتصار والتاجر المتحمس . وأثار اشمئزازي الطريقة التي رسمت لالتقائهما . كونه تاجراً لا يبيح له عقد صفقات بين النفوس . ولكن أهو المخطيء الوحيد ؟

انقطعت عن الاصغاء وبدأ ذهني يدور ويجول يفتش عن الشخص الذي قام بالترشيح لهذه الفكرة .

سمعت نفسي أضحك بصوت عال ولا أحد ينظر إليّ وأنا أتطلع إلى ناهدة وأعجب لغبائي .

تتبعت نظراتها وهي تغرق عينيها بوله في وجه روني . لا تسمع ولا ترى إلا اياه . ولا يثير أي أمر أي تساؤل في نفسها . الرضا والاطمئنان والسعادة والاستقرار كلها واضحة على وجهها . وتساءلت : ماذا يفعل الفرد ليحس أحاسيسها ؟ هل يستطيع أن يوحي إلى نفسه بهذا وأعماقه أمواج تتلاطم ؟ أين هو الشاطيء الأمين ليتوجه اليه ؟

وأخرجتني رتابة الخرير عن الجو وأحاديثه. وارتحت لهذا الخروج .. ولكن ما اسمعه لم يكن صوت ماء ينساب ، كان هناك هدير عال . شلالان قويان يلتقيان في مصب واحد ومقهانا يشرف على هذه الصورة أكثر من بقية المقاهي المتناثرة .

قمت إلى الملتقى حيث يصب ما سمي بالنهرين . كان الشلال

الأول يهبطبقوة وعنف، ويريد الاجتياح، والثاني قوي وعنيف ومجتاح . نقلت بصري بين الشلالين فلم استطع اكتشاف الأقوى ولكن الشلالين القويين المندفعين المجتاحين الملتقيين بكل عنفهما، يتحولان تدريجياً الى نهر واحد واسع هادىء صاف راو ينساب بخرير رضى ...

ليت الإنسان يتعلم من الأنهار حلمها وحكمتها وذكاءها فلا يتحول لقاء صاحبي رأيين مختلفين الى شر هدام .

لم يطل انتظاري لتحقيق هـــذه الأمنية فحين عدت الى مجلسنا وصلني صوت جديد . صوت متحمس مملوء بعبارات الاعجاب وألفاظ التأييد . كل كلمات الرضا التام كانت تصدر من شفتي وفم وأعماق صديقتنا انتصار موجهة للتاجر المتحمس لتجارته والمرشح للزواج بها .

كانت العبارات تصدر عنها وتطرق سمعي فلا أصدق أذني . تأملت عينيها ، كانتا مشرقتين بحماسة . أصابــع يدهــا تواصل الحركة بتأييد . قدماها ثابتتان. فركت عيني فعاد نفس المنظر . لمست أذني فتأكد لي صحة ما أسمع .

أدرت بصري في الحضور . أخت انتصار يرتسم على وجهها كل الانتصار ، يسرى تميل بوجهها تتأمل تدفق الملتقى .

أما ناهدة وروني فلا يزالان في عالمها . صديقهـا القصير القامة يضحك لا أدري لمن ! ولم ؟

كدت أصرخ في الحضور : الإنسان ليس نهـــراً يستطيع تغيير مجراه بهذه السهولة . انــه ليس شلالاً يلتقي بضده فيجــد

فيه خدنا . ولعلي تفوهت بهذا ولكن لم يسمعني أحد . كنت لا أزال واقفة ، ليس من كرسي فارغ أجلس عليه ، لا أرى أحداً ممن أعرف . ودون استئذان أو تحية انثنيت لأذهب ، ولكني وجدت نفسي أعود وأسير نحو ناهدة أمد لها كلتا يدي أصافحها وأشد على كفّها بقوة ..

١٩٦٥

سَنَة طَوِيلَة كَامِلَة

قال لها : أتعبتيني منتظراً موعد رؤيتك والحديث اليك .
طلبت منك هذا قبـــل اسبوع كامل . وطلبته
بإلحاح . لقد كان اسبوعاً قاسياً .

قــالت : كلنا نمرّ على أيام قاسية وأسابيـع مضنية وأشهر
وسنوات وعمر قد تكون كل لحظة فيه قاسية .

قـــال : لا .. لن أدعـك تبتعدين عن الموضوع الرئيسي
الذي أريد التحدث عنه . أنا أحبك و ..

قاطعته : منذ متى تدري هـذا ؟ هل اكتشفته خلال هـذا
الأسبوع القاسي ؟

قـــال : ماذا جرى لك ؟ ولم تكلمينني بهذه السخرية ؟

قـالت : لم أكن جادة في حياتي كما أنا عليه الآن .

قـــال : جرس صوتك يوحي بكل سخرية الدنيا في حين
أقول لك اني أحبك .

قـالت : أبي قال نفس هذه العبـــارة لأمي ثم ... وبعد
وفاتها بفترة قصيرة تزوج من أخرى أحبها أيضاً .

قـــال : ما أقوله لك هو اليقين الوحيد في نفسي .

قــالت : كان الحب يقيناً عند أبي دفعه الى الزواج من أمي قبل وفاتها .

قــــال : لا يصح أن تعيشي شكاً مطلقاً لأجـــل حادثة واحدة .. أنا ..

قاطعته : حين سافر أخي الى أميركا وعـدنا أن يعـود الى الوطن . وكان يكتب انه يستخف بالامريكيات ويعدّهن أتفـــه فتيات الأرض ، وفي رسالة تالية مباشرة عيّن موعد زفافه من فتاة اميركية .

قــــال : لا شك انه أحبها .

قــالت : كان يحب فتاة عراقية لا تزال تنتظره الى اليوم .

قــــال : لماذا تحصرين أفكارك في هـذه القوقعة الصغيرة . انفتحي على العالم الواسع الرحب ...

قاطعته : وعدتنا حكوماتنا طوال عشرين سنة من الاحتلال الصهيوني لقسم من فلسطـين ، بإرجـــاع الحق المسلوب ، وفي حرب حزيران كنا نسمع البلاغات الحربية تبشر بالانتصار القريب الساحق العـاجل و .. وأنت تعرف بقية القصة .

قــــال : ولم اليأس ؟ الأيام لم تنته والقادة بشر معرضون للأخطاء .

قــالت : قال الكتاب المقدس « ان بني اسرائيـــل سينتصرون في جولة أولى ثم يتفرقون في الأرض شذراً بعد ذلـك » . حرب حزيران هي الجـولة

الثانية والإله ليس بشراً .

قـــال : تقفزين من الحديث عن أقرب النـــاس الى الإله والقادة والزعماء ! لم لا تنظرين الى بقية الناس ؟. الناس الذين نتعـــامل معهم مباشرة ، ونراهم ونكلمهم ، أعني الناس العاديين .

قـالت : سافرت مرة مع شركة نقليات ذكرت في الاعلان ان الرحلة التي تنظمها تشمل زيارة عدد من الاقطار مع الاقامة في فنـادق من الدرجة الأولى وتناول وجبات الطعـــام الكاملة .. وكانت النتيجة ان أنقص من برنامج الرحلة قطران وأكتفي بطعام الفطور في فنـــادق من الدرجة الثانية . وحين حاسبت المدير على اعلانـه كان جوابه : وكيف تريدين أن أجلب زبائن ان لم ألجـــأ الى هذه الطريقة . وكيف كان سيتاح لي التعرف على آنسة مهذبة مثلك ؟

قـــال : هذه فرصتك لتأديبه ، فماذا قلت له ؟

قـالت : أضفته الى قائمة غير المهذبين الطويلة التي أعرفها .

قـــال : هذه طبيعة الأفراد . لمَ لمْ تستعيني بالمؤسسات السياحية المعروفة ؟

قـالت : قرأت في دليل سياحي اسماء الفنادق والمطـاعم والأثمـــان التي تتقاضاها وكان السعر يتراوح بين كذا وكذا من الليرات اللبنانية والفارق بين هذا

الكذا والكذا هو عشر ليرات على الأقل ، وذكر الدليل عن بعض الفنادق والمطاعم مزايا أعرف انها غير متوفرة فيها ، أما أجرة سيارات النقل فالسعر الذي حدد هو عشر الثمن الذي يتقاضاه السائق عادة فأين الصدق في كل هذا ؟

قـــال : تتحمسين كل هذه الحماسة وتتألمين بسبب معلومات مغلوطة ذكرها دليل يسمي نفسه سياحياً . من أدرانا بالقيمين عليه ؟

قـالت . أنا أدري . فالدليل هــــذا يصدر عن مؤسسة سياحية رسميـــة المفروض ان تسأل عن كل كلمـــة مطبوعة على ورقها الملون الصقيل .

قـــال : هؤلاء أفراد عابرون وأحداث عابرة فلم تعتبرين ما جرى هو السائد !

قـالت : وعدتني صديقي .. صديقة الصبا والطفولة أن تكتم أخبار مشاكلنا البيتيـــة وكنت أستسرها ثم ... ثم نثرت أخبارنا تلك في كل مكان .

قـــال : يظهر انك غير محظوظة بملاقاتك الشخصية .

قـالت : وعدتني المجـلة بارسال المكافأة الرمزيـــة على نشر (مقال) ألح رئيس التحرير في طلبه . لم أطالبهم بالمكافأة ولم يبعثوا بها .

قـــال : السكوت عن طلب الحق اعتراف بالتنازل عنه .

قـالت : وعدتني دار النشر بطبع كتابي خلال شهر من

تسلمها المخطوطة ،وقد مرت خمسة أشهر والكتاب
لم يطبع بعد وأنا أكتب للدار أطلب منها الغاء
العقد وأن تحلني من وعدي السابق لأرتبط مع
دار نشر جديدة متيسرة .

قال : تلك الدار مؤسسة حكومية وأنت تعرفين
الروتين في دوائرها وأظن ان هذا هو العائق عن
التنفيذ أو عن الإعتذار عنه .

قالت : وعدتني الخياطة أن تسلمني الفستان لأرتديه في
مناسبة خاصة . وبعد ثلاثة أيام من الموعد المطلوب
أرسلته لي حين لم أعد في حاجة ماسة اليه .

قال : هذا أمر بسيط . ستأتي ولا شك مناسبة بل
مناسبات أخرى كثيرة تحتاجين فيها الفستان. انه
لن يتلف .

قالت : قال بائع الحلويات انه سينجزها في الساعة الخامسة
وجاء الضيوف وذهبوا في الساعة الثانية عشرة
والحلوى لم تصل . وكان أول طارق صباح اليوم
التالي صينية الحلوى على رأس صبي المحل .

قال : وطبعاً لم تستلميها .

قالت : استلمتها لأن السبب في تأخر وصولها في موعدها
كان نسيان الصبي لها ، ومعنى عدم استلامها ان
يعاقب الصغير المسكين .

قال : هذه أحداث صغيرة متناثرة هنا وهناك تجمعينها

لتعكري صفو مزاجك !! لا أدري لم تتحدثين
عنها وكأنها وحدة تامة عامة ؟

قـالت : وعدني الأصدقاء ، كل الأصدقاء ، أن يتوسطوا لي
لدى المسؤولين في طلب تعويضي لخدمتي الحكومية
السابقة . وعدهم المدير ثم نكث بوعده . ووعدهم
المدير العـام ثم نكث بوعده . ووعـدهم الوزير ثم
نكث بوعـــده ثم .. ثم قيـــل لي ان أحداً لم
يتوسط لي .

قـــال : اذن فالذنب ذنب أصدقـــائك ، وليس ذنب
المسؤولين .

قـالت : ويؤكد اصدقائي انهم عملوا كل مـــا في وسعهم
لمساعدتي .

قـــال : وأخيراً ما هي الحقيقة ؟

قـالت : لم أعد أسأل عنها .

قـــال : فرديتك تخيفني ، يجب ان تكون نظرتك عامة
إنسانية شاملة واسعة .

قـالت : منذ سنوات وحكوماتنا تعدنا بحكم نيابي يعلن
خـلال فترة انتقالية عينت مدتهـا . وفي كل مرة
توشك ان تنتهي فيها تلك الفترة الانتقـالية تعود
لتمديدها .

قـــال : الذنب ذنب الشعب . ذنب المفكـرين . ذنب
الكتّـاب . ذنب الصحف . ذنب كل من يستطيـع

أن يسمع صوته للمسؤولين ويسكت .

قـالت : كان لنا جار يملك صحيفة كرسها للقضايا الوطنية العامة . عرضت عليه محـاولات مغريـة لشرائه فأبى ثم الصقت به تهمة اخلاقية يدري كل الناس انها باطلة وسجن الرجل وعذب ومـات تحت التعذيب .

قـال : انه بطل ، هذا بطل يجب أن يحج الى قبره .

قـالت : لقد قاطع الأصدقاء والمعارف بيته. قاطعوا أفراد أسرته ونبـذوهم خوف ان يصل اليهم رذاذ مما وصل الى البطل .

قـال : ما علينا من كل هذا..ما علينا منه.أنا أحبك... لقد انتظرت سنة طويلة كاملة لأقول لك هذا .

قـالت : ولم انتظرت سنة طويلة كاملة لتقول هذا ؟

قـال : كنت أريد التأكد من مشاعري قبل البوح بها .

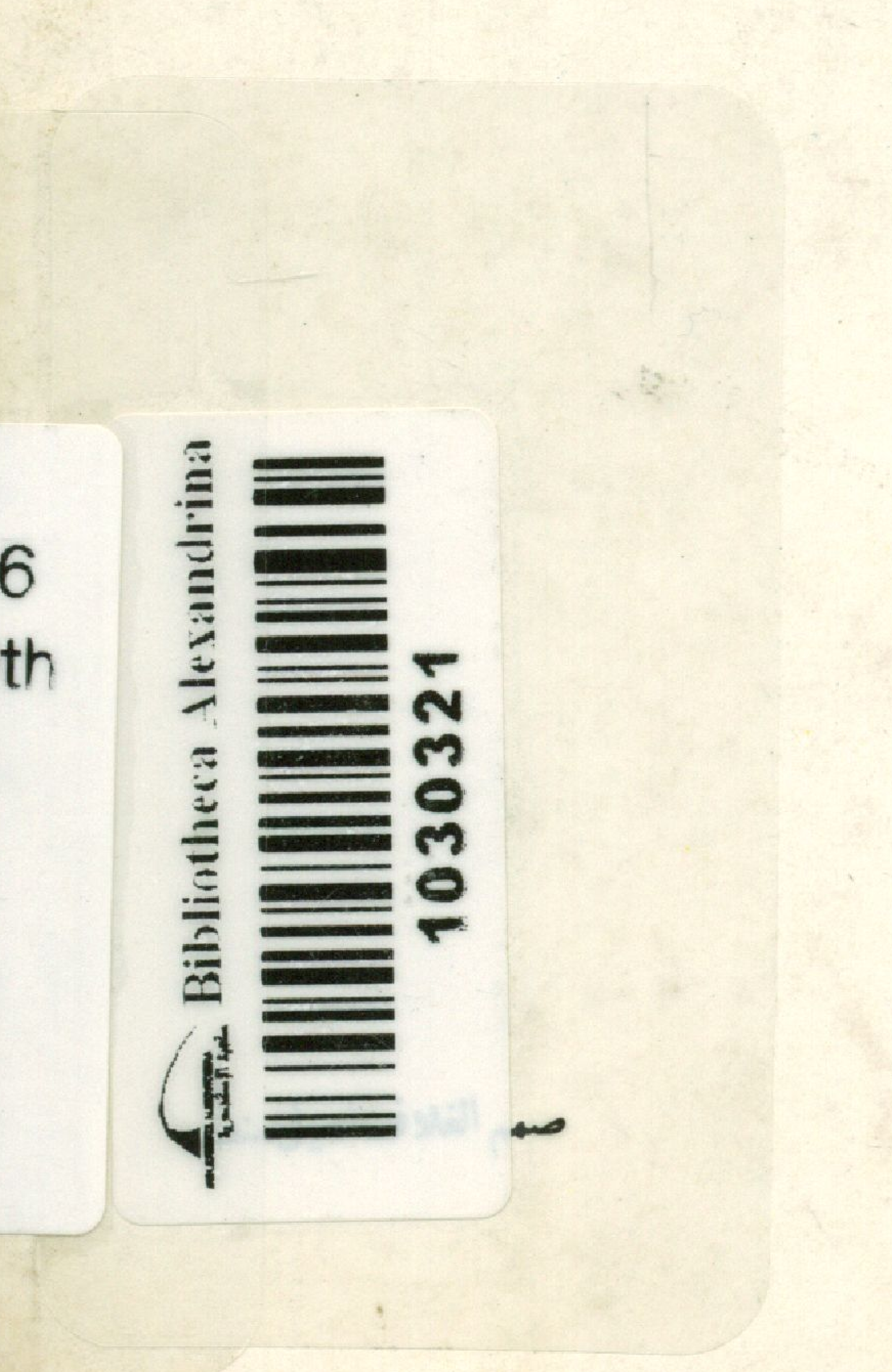
قـالت : اما أنا فقد أمضيت هذه السنة الطويلة الكاملة أتساءل : متى سيبوح لي بحبه ! ثم بدأت اتساءل أتراه سيبوح لي بحبـه ! ثم صرت أتساءل أتراه يحبني ؟

قـال : حبي لك هو اليقين الأكبر في حياتي .

قـالت : بعد سنة طويلة كاملة من الانتظار أصبح ، الشك هو اليقين الأكبر في حياتي .

حزيران ١٩٦٨

الفهرست


Bibliotheca Alexandrina
1030321